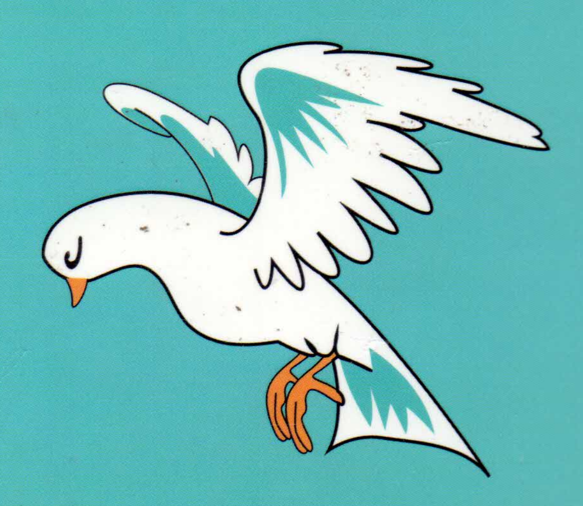
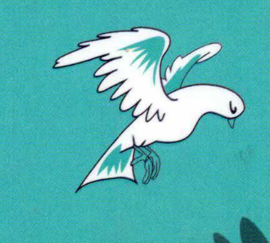
قصص الأنبياء

المجلد الثانى



بقلم : أ . عبد الحميد عبد المقصود
رسوم : أ . عبد الشافى السيد
إشراف : أ . حمدى مصطفى




العربيـة الحديثـة
للطبع والنشر والتوزيع بالقاهرة والإسكندرية


خطوط للتجليد
مدينة العبور - المنطقة الصناعية الأولى
تليفون : ٤٦١٠٦١٣٦ (٠٢)
Khotout.binding@gmail.com

قصص الأنبياء

المجلد الثانى



مقدمة

الحمد لله رب العالمين .. والصلاة والسلام على سيدنا محمد النبى الكريم وعلى آله وصحبه أجمعين ..

مرحبًا بكم مع سيرة الأنبياء عليهم السلام ..

فالأنبياء عليهم السلام هم مصابيح الهدى ، وهم الأسوة والقدوة ، أرسلهم الله تعالى لإنقاذ البشرية ، وتحملوا الأذى فى سبيل دعوتهم لله عز وجل .. بذلوا الجهد وصبروا ليواصلوا الرسالة كما أمرهم الله تعالى .

ولأهمية قصص الأنبياء يقول الله ـ عز وجل :

﴿ نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن وإن كنت من قبله لمن الغافلين ﴾ . [يوسف الآية ٣]

ويقول ـ تعالى :

﴿ فاقصص القصص لعلهم يتفكرون ﴾ . [الأعراف الآية ١٦٧]

هذه الآيات تشير إلى أهمية القصص ، وكيف أنها منهج قرآنى ربانى أصيل ، لتثبيت النبى ﷺ والمؤمنين من بعده ؛ لعلهم يتفكرون ويتأملون ، ويعتبرون من هذه القصص ..

﴿ لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب ما كان حديثًا يفترى ولكن تصديق الذى بين يديه وتفصيل كل شىء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون ﴾ . [يوسف الآية ١١١]





قصص الأنبياء

إبراهيم عليه السلام





بناء الكعبة المشرّفة

ذَكَرَ بَعْضُ السَّلَفِ الصَّالحِ ، أَنَّ آدمَ عليه السلام لمَّا هبطَ مِنَ الْجَنَّةِ إلى الأرْضِ هوَ وزَوْجَتُهُ حَوَّاءُ .. ورأى آدمُ سَعَةَ الأرْضِ ، ولمْ يرَ فِيها أحدًا غيرَهُما ، قال :

ـ يارَبُّ ، أمَا لأرْضِكَ هَذه عَامِرٌ يُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ ، ويُقَدِّسُ لَكَ غَيْرى ؟!

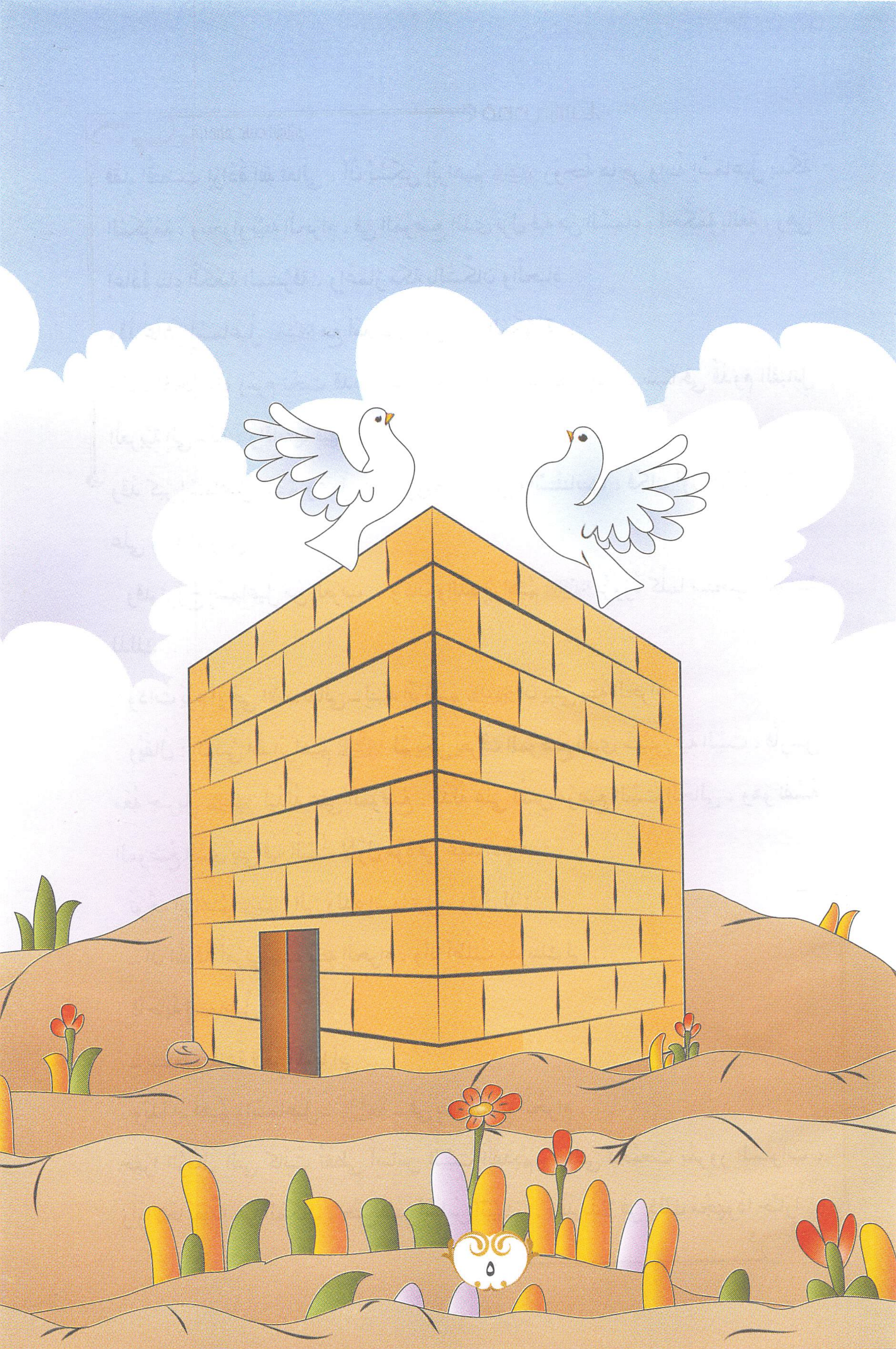
وذكَرُوا أنَّ اللهَ تعالَى قدْ أَجابَهُ قائِلًا :

ـ إِنِّى سأجْعَلُ فِيهَا مِنْ وَلَدِكَ مَنْ يُسَبِّحُ بِحَمْدِى ويُقَدِّسُنِى ، وسأجْعَلُ فِيهَا بُيُوتًا تُرْفَعُ لِذِكْرِى ، ويُسَبِّحُ فيها خَلْقِى ، ويُذْكَرُ فِيهَا اسْمِى ، وسأجْعَلُ مِنْ تِلْكَ الْبُيُوتِ بَيْتًا أَخُصُّهُ بِكَرَامَتِى ، وأُوثِرُهُ بِاسْمِى ، وأُسَمِّيهِ بَيْتِى ، أُنْطِقُهُ بِعظَمَتِى ، وعلَيْهِ وضَعْتُ جَلالِى .. أَجْعَلُ ذلكَ الْبَيْتَ حَرَمًا آمِنًا ، يَحْرُمُ بِحُرْمَتِهِ مَنْ حَوْلَهُ ، وَمَنْ تَحتَهُ ، ومَنْ فَوْقَهُ ، فَمَنْ حَرَمُهُ بِحُرْمَتِى ، اسْتَوْجَبَ بذَلك كَرَامَتِى ، ومَنْ أخَافَ أهْلَهُ فِيه فقدْ نَقَضَ ذِمَّتِى ، وأبَاحَ حُرْمَتِى .. أَجْعَلُهُ أوَّلَ بيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ بِبَطْنِ مَكَّةَ مُبارَكًا .. يأْتُونَ شُعْثًا غُبْرًا على كُلِّ ضَامِرٍ ، مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَميقٍ .. يَرُجُّون بالتَّلْبِيَةِ رَجِيجًا (أىْ ترتفِعُ أصْواتُهُم بِالتَّلْبِيَةِ) ويَعُجُّونَ بالتَّكْبِيرِ عَجِيجًا .. فَمَنِ اعْتَمَدَهُ (زارَهُ) لايُرِيدُ غَيْرَهُ ، فقدْ وَفَدَ إلى وِزارَتى وضِيافَتى ، وحَقٌّ على الكَرِيمِ أنْ يُكْرِمَ وَفْدَهُ وأضْيافَهُ ، وأنْ يُسْعِفَ كُلًّا بحَاجَتِهِ (يُعْطِى كُلَّ سَائِلٍ ما سَأَلَهُ) .. هذا الْبَيْتُ تَعْمُرُهُ يا آدمُ ما كُنْتَ حَيًّا ، ثمَّ تَعْمُرُهُ الأُمَمُ والْقُرونُ والأنْبِياءُ مِنْ وَلَدِكَ أُمَّةٌ بعْدَ أُمَّةٍ ، وقَرْنٌ بَعْدَ قَرْنٍ ..

وقد أُهبطَ الْبَيْتُ الْحرامُ والْحَجَرُ الأسْودُ مِنَ السَّماءِ .. هَبَطَتْ به الْملائِكَةُ ، ثم أمرَ اللهُ ـ تعالَى ـ آدمَ عليه السلام أنْ يأْتِى الْبَيْتَ الْحرامَ ، فيَطوفَ به ، كما كانَ يَرَى الْملائِكَةَ فى السَّماءِ ، وهِىَ تطُوفُ حَوْلَ عَرْشِ الرَّحْمَنِ ..

وعِنْدمَا أَغْرقَ اللهُ الأرْضَ بالطُّوفانِ فى عَهْدِ نُوحٍ ، رفَعَ الْبَيْتَ الْحَرامَ ، وبَقِىَ أساسُهُ فى الأرْضِ ، حتى جاءَ إبْراهيمُ عليه السلام فأَمَرَهُ اللهُ ـ تعالَى ـ بإِعَادةِ بِنَائِه ..





فقدِ اقْتضتْ إرَادَةُ اللهِ تعالَى ، أنْ يُسْكِنَ إبْراهيمُ عليه السلام زوْجَتَهُ هاجَر وابْنَهُ إسْماعِيلَ بمكَّةَ المُكرَّمَةِ ، وبِجِوارِ بَيْتِهِ الْحرَامِ ، فى المَوْضِعِ الذى نزَلَ فِيهِ منَ السَّماءِ ، لِحكْمَةٍ بالغَةٍ ، وهى إعادَةُ بِناءِ الْكَعْبَةِ المشرَّفَةِ ، وإعْمارُ مَكَّة بالسُّكَّانِ والْحياةِ ..

وقدْ عاشَ إسْماعيلُ عليه السلام معَ أمِّهِ هاجرَ فى مَكَّةَ الْمُكرَّمَةِ ..

وكانَ تفجُّرُ ماءِ زَمْزَمَ تَحتَ قَدمَىْ إسْماعيلَ عليه السلام مِنْ بِئْرِ زمزَمَ ، سَببًا فى قُدُومِ الْقبائِلِ الْعربيَّةِ إلى مَكَّةَ ، وإقَامتِهَا فِيهَا ..

وقدْ كَبرَ إسْماعيلُ بيْنَهُمْ وعمِلَ على تَرْوِيضِ الْخيْلِ واسْتِئْناسِها ، فكانَ أوَّلَ منْ فعَلَ ذلِكَ علَى وَجْهِ الأرْضِ ..

وقدْ تزوَّجَ إسْماعيلُ منَ الْعرَبِ .. وكانَ والِدُه إبْراهيمُ عليه السلام يَزُورُهُ كُلَّما سنحَتِ الْفرصَةُ لِذلك ..

وذاتَ يَوْمٍ أوْحى اللهُ ـ تعالَى ـ لِنبيِّه إبْراهيمَ عليه السلام أنْ يَبْنِى بَيْتَهُ الْحرامَ ..

ويُقالُ : إنَّ نَبِىَّ اللهِ إبْراهيمَ عليه السلام لَمْ يكُنْ يَعْرِفُ الْموضِعَ الذى سَيَبْنِى فيهِ البَيْتَ ، فأَرْسَلَ معَهُ جِبْريلَ عليه السلام لِيَدُلَّهُ على الْمَوْضِعِ ، فدَلَّهُ على نفْسِ موْضِعِ الْبَيْتِ الْحَالِى ، وهوَ نفْسُهُ الموضِعُ الَّذى بُنِىَ فيهِ الْبَيْتُ لأوَّلِ مَرَّةٍ فى عَهْدِ آدَمَ ..

تَوجَّه إبراهيمُ عليه السلام إلى ولَدِه إسْماعيلَ ، وقالَ له :

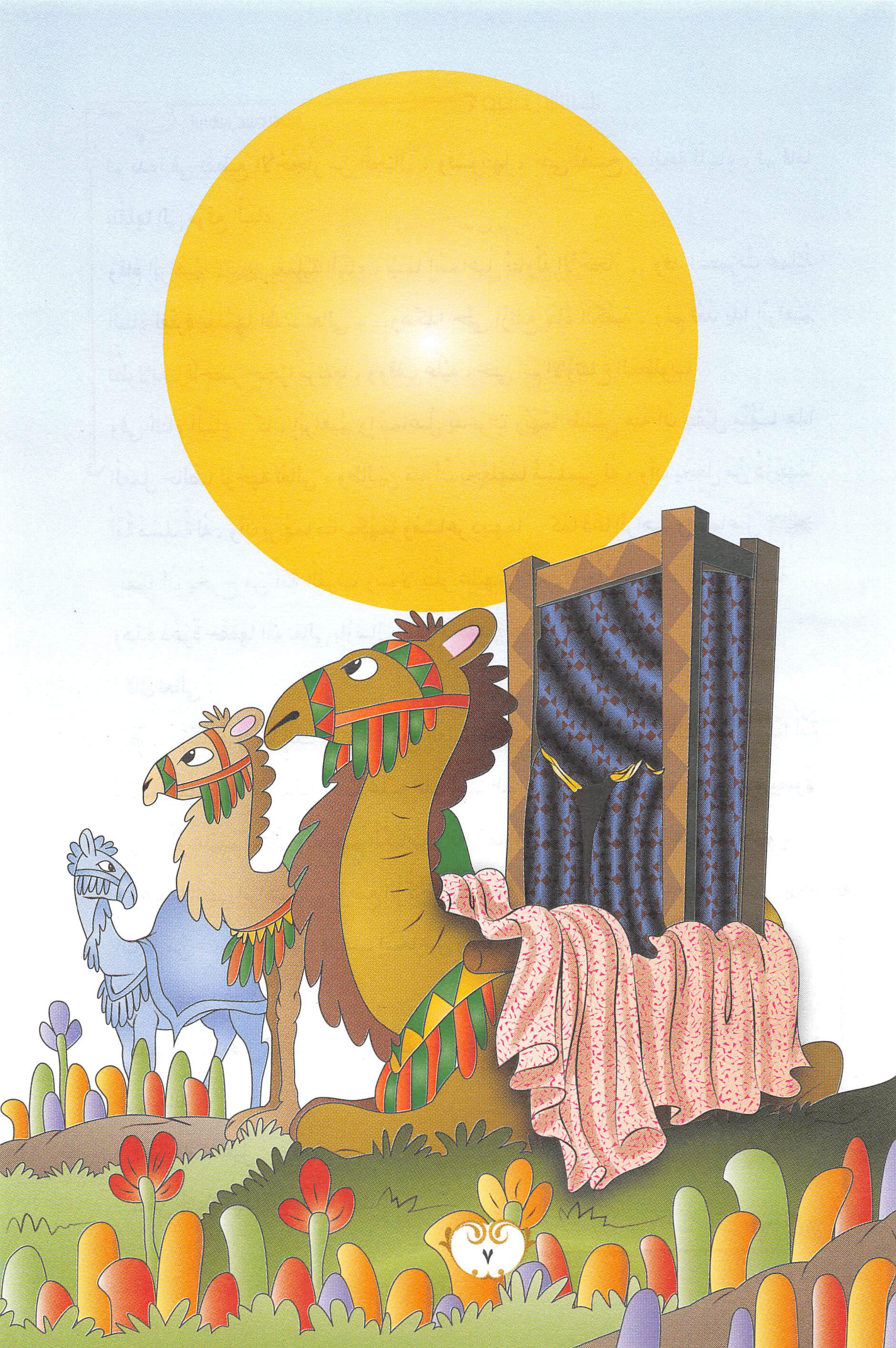
ـ إنَّ اللهَ قدْ أمَرنى ببِناءِ بَيْتِهِ الْحرامِ ، وأنا أَطْلُبُ مَعُونَتكَ لِى ..

فأجابَهُ إسْماعيلُ :

ـ سَمْعًا وطاعَةً لأمْرِ اللهِ يا أَبى ..

وبَدأَ إبْراهيمُ وإسْماعيلُ ـ عليهما السلام ـ فى بِناءِ الْبَيْتِ الْحَرامِ ..

حفَرَا الرِّمَالَ التى كانَتْ تُغطِّى أَسَاسَ الْبَيْتِ الْقَديمِ ، والتى تجمَّعَتْ بمُرورِ السَّنواتِ ، وأزالاهَا بَعيدًا عَنِ الْمكانِ ، حتَّى ظهَرَ أَسَاسُ الْبيْتِ .. وقَدْ بذَلا فى ذلكَ مَجْهُودًا جبَّارًا ..



ثم بَدءا فى تقْطيعِ الأحْجارِ مِنَ الْجِبال ، وتَسْوِيتِها ، حتَّى تُصْبِحَ صالِحَةً للْبِناءِ ، ثم قاما بِنَقْلِها إلى مَوْقعِ الْبِناءِ ..

وقامَ إبْراهيمُ عليه السلام بعَمَلِيَّةِ الْبِناءِ ، بَيْنما إسْماعيلُ يُناوِلُهُ الأحْجارَ .. وقَدِ اسْتمرَّتْ عمليَّةُ الْبِناءِ لِفتْرةٍ يَعْلَمُها الله ـ تعالَى ـ ..وهكذا حتَّى ارْتفَعَ بِناءُ الْكَعْبَةِ ، ولَمْ تَعُدْ يَدا إبْراهيمَ تَطُولانِه ، فأحضرَ حجرًا مُرْتفِعًا ، ووقفَ علَيْهِ ، حتى أتمَّ الارْتِفاعَ الْمَطْلُوبَ ..

وفِى أثْناءِ الْبِناءِ ، كانَ إبْراهيمُ وإسْماعيلُ يَدْعُوانِ رَبَّهُما طالِبَيْنِ مِنْهُ أنْ يتَقَبَّلَ مِنْهُما هذا الْعملَ خالصًا لوجْهِهِ تعَالَى ، وطالِبَيْنِ مِنه أنْ يَجْعَلَهُما مُسْلميْنِ لهُ ، وأنْ يجْعَلَ مِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَهُ ، وأنْ يُرِيَهُما مَناسِكَهُمَا ومَشاعِرَ دِينهما .. كمَا دَعَا إبْراهيمُ وإسْماعيلُ عليهما السلام ربَّهُمَا أنْ يُخْرِجَ مِنْ أُمَّةِ الْعَرَبِ رَسُولاً يَتْلُو عَليْهِمْ آياتِهِ ، ويُعَلِّمُهُمُ الْكِتابَ والْحِكْمَةَ .. وهذه دَعْوَةٌ حَقَّقَها الله تعالَى بِإرْسَالِ النَّبِيِّ مُحمَّدٍ ﷺ ..

قالَ تعالَى :

﴿ ... رَبَّنا تقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * رَبَّنا واجْعَلْنا مُسلمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ * رَبَّنا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آياتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتابَ والْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ .

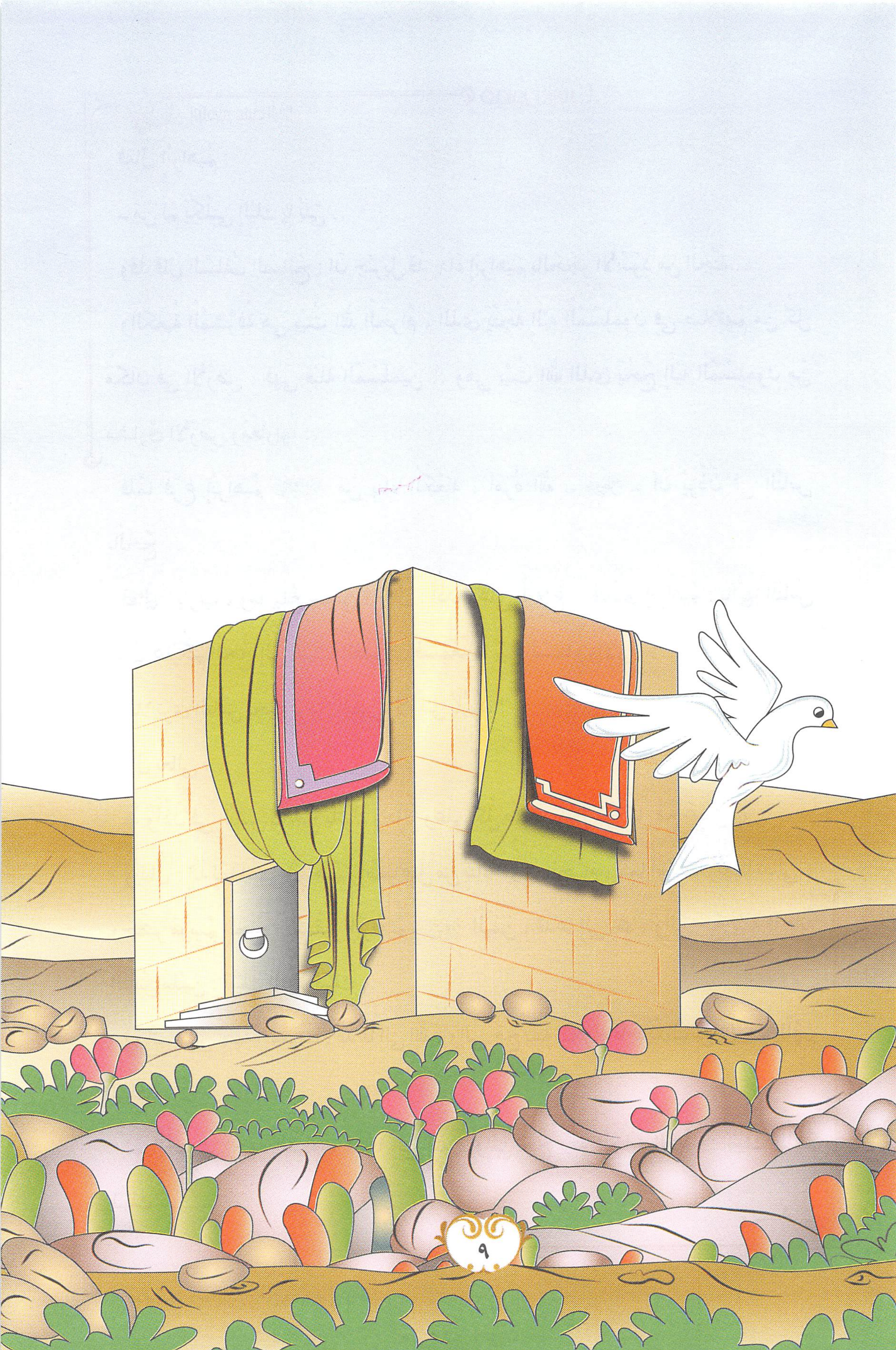
وعِنْدَمَا انْتَهَى إبراهيمُ إِلَى مَوْضِعِ الرُّكْنِ ، طَلَبَ مِنْ إسْماعيلَ أنْ يأْتِىَ لَهُ بِحَجرٍ مُمَيَّزٍ ، لِيَبْدَأَ النَّاسُ منْ عِنْدِهِ الطَّوَافَ ، فذَهَبَ إسْماعيلُ وأَحْضرَ لَهُ حجرًا ، لكنَّه لم يُعْجِبْهُ ، فقَالَ لَهُ : أَحْضِرْ حَجرًا غيْرَهُ ..

فذَهَبَ إسْماعيل لِيُحْضِرَ حَجرًا ، فلَمَّا جاءَ بِهِ إِلَى إبْراهيمَ ، وجَدهُ قَدْ وَضَعَ الْحَجرَ الأَسْوَدَ فى مَكَانِهِ ..

فَسأَلهُ إسْماعيلُ :

ـ مَنْ جاءَكَ بهذَا الْحَجرِ يا أَبَتِ ؟!





فقالَ إِبْراهيمُ :

ـ مَنْ لَمْ يَكِلْنِى إِلَيْكَ يا بُنَىَّ ..

وقدْ قالَ السَّلَفُ الصَّالِحُ : إِنَّ جِبْرِيلَ قَدْ جاءَ إِبْراهيمَ بالحَجَرِ الأَسْوَدِ مِنَ الْجَنَّةِ ..

والْكَعْبَةُ الْمُشَرَّفَةُ هى بيْتُ الله الْحَرامُ ، الذى يَتَّجِهُ إِلَيْهِ الْمُسْلِمُونَ فِى صَلاتِهِمْ من كُلِّ مَكانٍ فِى الأرْضِ ، فهى قِبْلَةُ المُسْلِمينَ .. وهى بَيْتُ اللهِ الذى يَحُجُّ إِلَيْه الْمُسْلِمون مِن مَشارِقِ الأَرْضِ وَمَغارِبِها ..

فلمَّا فَرَغ إبْراهيمُ عليه السلام مِنْ بِناءِ الْكَعْبَةِ ، أَمَرَهُ الله ـ عز وجل ـ أنْ يُؤَذِّنَ فى النَّاسِ بِالْحَجِّ ..

فقالَ : يارَبِّ ، وما يَبْلُغُ صَوْتى ؟! قالَ : أَذِّنْ وعلىَّ الْبَلاغُ .. فنادَى إبراهيمُ : ياأَيُّها النَّاسُ كُتِبَ عليْكُمُ الْحَجُّ إِلَى الْبَيْتِ الْعَتيقِ .. فَسَمِعَهُ ما بَيْنَ السَّماءِ والأَرْضِ ..

أفَلا ترَى النَّاسَ يَجيئُونَ مِنْ أَقْصَى الأَرْضِ يُلَبُّونَ !

قالَ تعالى :

﴿ وأَذِّنْ فى النَّاسِ بالْحَجِّ يأْتُوكَ رِجالاً وعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يأتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَميقٍ ﴾ .

ويُقالُ : إِنَّهُ لَمَّا انْتَهَى إبْراهيمُ وإسْماعيلُ مِنْ بناءِ الْبَيْتِ الْحَرَامِ ، كما أَمَرَهُما رَبُّهُما تعالى ، وحضرَ مَوْسِمُ الحَجِّ ، اسْتَقْبَلَ إبْراهيمُ عليه السلام الْيَمَنَ ، فدَعا إِلى الله ، وإِلى حَجِّ بَيْتِهِ فأجابَهُ النَّاسُ مُلَبِّينَ : لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ ..

ثُمَّ اتَّجَهَ إلى جِهَةِ الْمَغْرِبِ ، فدَعا إِلى الله ، وإِلى حَجِّ بَيْتِهِ الْحرَام فأجابَهُ النَّاسُ : لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ ..

ثمَّ اتَّجَهَ إِلَى جِهَةِ الشَّام ، فدَعا إِلى الله ، وإِلى حَجِّ بَيْتِهِ فأجابَهُ النَّاسُ : لَبَّيْك اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ ..



ثَمَّ خرجَ بِابْنِه إسْماعيلَ ، ومَنْ معَهُ مِنَ الْمُسْلمينَ ، فى يَوْمِ التَّرْوِيَةِ فنزَلَ بهِمْ فى مِنًى ، فصَلَّى بِهِمُ الظُّهْرَ والْعَصْرَ والْمَغْربَ والْعِشاءَ ، ثمّ باتَ حتَّى أصْبَحَ الصُّبْحُ ، فصَلَّى بِهِمْ صَلاةَ الْفَجْرِ .. ثمَّ غدا بِهِم إلَى عرَفَةَ ، فقَالَ بِهِمْ هناكَ (قَضَى بِهِمْ وَقْتَ الْقَيْلُولَةِ) ..

حتَّى إذَا مَالَتِ الشَّمْسُ جمَعَ بيْنَ صَلاتَيِ الظُّهْرِ والْعَصْرِ ..

ثمَّ راحَ بِهِمْ إلَى الْمَوْقِفِ مِنْ عرَفَةَ ، فوقَّفَ بهِم الأَرَاكِ ، وهُوَ الموْقِفُ مِنْ عرَفَةَ ، الذى يقفُ عليْه الإمَامُ حتَّى الْيَوْم فلمَّا غربَتِ الشَّمسُ نزلَ بِمَنْ معَهُ مِنَ الْحُجَّاجِ إلى الْمُزْدلِفة ، فجمعَ فيها بَيْنَ صَلاتَيِ الْمَغْربِ والْعِشاءِ .. ثمّ باتَ بمَنْ معَهُ فى الْمُزْدَلِفَةِ ، حتَّى إذَا طَلعَ الْفَجْرُ صلَّى بهمْ صَلاةَ الْفَجْرِ ..

ثمَّ وقفَ بهمْ على قُزَحٍ مِنَ الْمَزْدَلِفَةِ ، وهو الْمَوْقِفُ الذى يقِفُ به الإمَامُ ، حتَّى إذا انْتَهَى دَفَعَ بإسْماعِيلَ ومَنْ معَهُ من الْمُسْلمين ، يعَلِّمُهُمْ شعائِرَ الْحجِّ .. حتَّى رَمَى الْجمْرَةَ الكُبْرَى ، وَأراهُمُ الْمكانَ الذى ينحرونَ فيه فى مِنًى .. ثمَّ نحرَ الأُضْحِيَةَ وحلقَ شَعْرَهُ .. ثمّ أفاضَ بإسْماعيلَ ومَنْ معهُ إلى مِنًى لِيُرِيَهُمْ كيْفَ يطُوفُ .. ثمَّ عادَ بإسْماعيلَ ومَنْ معَهُ إلى مِنًى ، لِيُرِيَهُمْ كيْفِيَّةَ رَمْيِ الْجَمَراتِ ، حتَّى فرغَ مِنْ شَعائِرِ الْحَجِّ ..

وقَدْ رُوِى عنِ النَّبيِّ ﷺ ، أنَّ جبْريلَ عليه السلام هو الَّذى كانَ يُرِى إبْراهيمَ عليه السلام مناسكَ الْحجِّ ..

والْمُلاحظُ أنَّ هذه المناسكَ الَّتى أدَّاها إبْراهيمُ عليه السلام وعَلَّمَها ولدَهُ إسْماعيلَ والْمُسْلمين ، هى نفسُ الْمَناسك والشَّعائِرِ ، التى أدَّاهَا نَبِيُّنا مُحَمَّدٌ ﷺ ، والتى ما زَالَ الْمُسْلِمونَ يؤدُّونَها حتى يَرِثَ اللهُ الأَرْضَ وَمَنْ علَيْها ..

ولا عَجَبَ فى ذلكَ ، فقدْ كانَ إبْراهيمُ عليه السلام مُسْلمًا خالِصَ الإسْلامِ للهِ تعالَى ، وكانَ ابْنُهُ إسْماعيلُ وجمِيعُ الأنْبِياءِ مُسْلِمينَ للهِ تعالَى .. وقدْ أوْحَى اللهُ تعالَى إلى مُحمَّدٍ ﷺ أنْ يَتَّبعَ مِلَّةَ وَدينَ أبيهِ إبْراهيمَ عليه السلام ..



قال تعالَى :

﴿ ... أنِ اتَّبعْ مِلَّةَ إبْراهِيمَ حَنيفًا ومَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ .

وقالَ تعالَى :

﴿ ما كانَ إبْراهِيمُ يَهُودِيًّا ولا نَصْرَانِيًّا ولَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وما كانَ مِنَ الْمُشْركينَ ﴾ .

وإبْراهيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ هو الَّذِى سَمَّانا الْمُسْلِمِينَ ، حتَّى مِنْ قَبْل أنْ تُوجَدَ أُمَّةُ الإِسْلامِ ..

قالَ تعالَى :

﴿ ... ومَا جعَلَ عليْكُمْ فِى الدِّينِ منْ حَرجٍ مِلَّةَ أبِيكُمْ إبْراهيمَ هوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمينَ مِنْ قَبْلُ ﴾ .

تَمَّتْ

قصص الأنبياء

لوط عليه السلام

(لُوطٌ) عَلَيْهِ السَّلَامُ هو (لوطُ بْنُ هَارَان) وهوَ ابْنُ أَخٍ لِنَبِيِّ اللهِ إبْراهيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وهوَ الرَّجلُ الْوَحيدُ الذى آمَنَ بِعمِّه إبْراهيمَ فى بَلَدِه ، وتَبِعَهُ مُهاجِرًا مَعهُ إلى اللهِ فى رِحْلاتِه إلى الشَّامِ وفِلِسْطِينَ ومِصْرَ ..

وقدْ وَسَّعَ اللهُ ـ تعالى ـ لهُ فى رِزْقِهِ فَكَثُرَتْ أمْوالُهُ ومَوَاشِيه .. وعَقبَ عَوْدَةِ إبْراهيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ رحْلَتِه إلى مِصْرَ مع زَوْجَتَيْهِ سَارَّةَ وهَاجَرَ ، افْتَرقَ عَنْهُ لُوطٌ ، فنزَلَ فى بَلْدَةٍ تُسَمَّى (سَدُومَ) بالأُرْدُنِ ، ونزلَ إبْراهيمُ بِفِلسْطِينَ ..

وأَرْسلَ اللهُ ـ تعالى ـ لُوطًا نبيًّا إلى أَهْلِ (سَدُوم) وقدْ كانَ قَوْمُ (سَدُوم) قوْمًا كافِرِينَ ، ذَوِى أَخْلاقٍ سَيِّئَةٍ ..

كانُوا لا يَسْتَحُونَ مِنْ عَمَلِ الْمُنْكَر ، ولا يتعَفَّفُونَ عَنِ ارْتِكابِ الْمعاصى على الْمَلإِ ..

وكانَ مِنْ مَعَاصِيهِمْ أنْ يَقْطَعُوا الطريقَ على الْغُرَباءِ والْمُسافِرِينَ ، وأَبْناءِ السَّبِيلِ ، فيُجَرِّدونَهُمْ مِنْ كُلِّ شَىءٍ ، ولا يَتْرُكُونَ لهُمْ شَيْئًا إلا واسْتَوْلَوا عَلَيْهِ ..

وكانَ إذا دَخَلَ مدِينَتَهُم تاجِرٌ تَربَّصُوا بِه ، واجْتَمعُوا عَلَيْهِ ، فلا يَتْرُكونَ شَيْئًا مِنْ بِضاعَتِهِ إلا نَهَبُوهُ دُونَ مُقَابِلٍ وهَرَبُوا بِهِ ..

ذاتَ يَوْمٍ كانَ أَحَدُ التُّجّارِ الْمَسَاكِينِ يَطُوفُ بالقُرَى والْبُلْدانِ حَامِلاً بِضاعَتَهُ ، على ظَهْرِ دَابَّتِهِ ، فسَاقَهُ حَظُّهُ الْعاثِرُ إلى (سَدُوم) ولَمْ يَكُنْ هذا التَّاجِرُ الْمِسْكِينُ قَدْ سَمِعَ شَيْئًا عمَّا يقُومُ به أَهْلُ (سَدُوم) مِنْ سَلْبٍ وَنَهْبٍ لِكُلِّ مَنْ يَدخُلُ قَرْيَتَهُمْ أَوْ يَمُرُّ بها ..

فتربَّص لهُ أَهْلُ (سَدُوم) حتَّى أَصْبَحَ فى قَبْضَتِهِمْ ..

فأَخذ كُلُّ واحدٍ منْهمْ يَمُدُّ يدَهُ إلى بِضَاعَتِهِ ، ويَنْهَبُ شَيْئًا قَليلًا ، دونَ أَنْ يَدْفعَ لهُ ثَمَنَهُ ، حتَّى لمْ يَبْقَ فى رَحْلِ التَّاجِرِ مِنَ البضاعَةِ شىءٌ .. ثُمَّ تفرقُوا عنْهُ .. فجلسَ التَّاجِرُ حزينًا يَنْعى حظَّهُ ، الذى سَاقَهُ إلى هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظالِمَةِ .. ثم أَخذَ يَبْكى ويَجْأَرُ بالشَّكْوى ..



وَبعدَ قليلٍ أَخذَ أهْلُ (سَدُوم) يتوافدُون عليْه واحِدًا فواحِدًا ، فيَقُولُ لهُ الْواحِدُ مِنْهُمْ :

ـ كلُّ هذا لأنِّى أخذْتُ مِنْكَ هذا الشَّىْءَ الْيَسيرَ ؟!

خُذْهُ ولا تَبْكِ ..

فيقولُ لهُ التَّاجِرُ :

ـ مَا عَسَى أَنْ يَنْفَعَنى هذا الشَّىْءُ الَّذى جِئْتَ تُعِيدُهُ إِلَىَّ ، وقدْ نَهبَ كُلُّ واحِدٍ فى الْقَرْيَةِ مِثْلَهُ !!

ويترُكُهُ له التَّاجِرُ .. وهكذا تتفرَّقُ بضاعَةُ كُلِّ تاجِرٍ يدْخُلُ هَذه الْقَرْيَةَ وتَضِيعُ دُونَ أَنْ يَقبِض ثمَنَها ..

وهُناكَ مِنَ الْقِصَصِ التى تُرْوى عَنْ فسَادِ قَوْمِ لُوطٍ وظُلْمِهم الْكَثيرُ والْكَثيرُ .. يُقالُ : إنَّ السَّيِّدَةَ سارَّةَ زوْجَ نَبِىِّ اللهِ إبْراهيمَ عليه السلام قدْ أَرْسَلَتْ أَحَدَ خَدَمِها إلى لوطٍ عليه السلام ليأْتِيها بِشَىْءٍ منْ عِنْدِهِ ، فلمَّا دخل الْخادِمُ مَدِينَةَ (سَدُوم) لَقيَهُ رَجُلٌ مِنْ أهْلِها ، فأَمْسَكَ حَجرًا وضَرَبَ به الْخادِمَ فى رَأْسِهِ ، فجرَحَهُ وأَسَالَ مِنْهُ دَمًا كثيرًا ..

ولَيْتَهُ ترَكَهُ عِنْد هذا الْحَدِّ بلْ تعلَّقَ بِهِ قَائلًا :

ـ إنَّ هذا الدَّمَ لوْ بَقِىَ فى رأْسِكَ لَسبَّبَ لك ضَرَرًا بالِغًا .. أَعْطِنى أَجْرِى ، وإلا فلَنْ أتْرُكَكَ ..

فقالَ الخادِمُ :

ـ مِنَ الأَفْضَل أنْ نَذْهَبَ لِقاضِى (سَدُوم) ، لِيأْتى لى بحَقِّى ..

ووقفَ الْجانى والْمَجْنى علَيْه أَمَامَ قاضى سَدُوم ، فبماذا حَكَمَ؟! لقدْ حكمَ على الْخادِمِ أَنْ يُعطِىَ أَجْرًا للرَّجلِ على ضَرْبِهِ له بالحَجَرِ وإسالَةِ دَمِه ..

وتضايقَ الْخادِمُ الْمِسْكِينُ مِنْ هذا الظُّلْمِ ، الذى وَقَعَ عليْه ، فأمْسَك حجرًا وضربَ بهِ رأْسَ الْقاضِى ، فأَسَالَ دَمَهُ ، وقالَ لهُ :

ـ الأَجْرُ الَّذى أَسْتَحِقُّهُ مِنكَ نظيرَ ضَرْبِكَ وإِسَالَةِ دَمِكَ ، أرْجُوكَ أنْ تُعْطِيهُ لهذا الرَّجُلِ ، نظيرَ ضَرْبِهِ إيَّاى ، وَإسَالَةِ دَمى ..

وبالإضافةِ إلى ذلك كانَ قوْمُ لُوطٍ سَبَّاقِينَ إلى ارْتكَابِ مَعاصٍ لمْ يسْبقهُمْ إليْها أحدٌ مِنَ الْعالمينَ .. فقَدْ كانوا يَتْرُكونَ النِّساء اللائِى شرَعَ اللهُ ـ تعالى ـ لَهُم زواجَهُنَّ بالْحلالِ ، ويأْتونَ الرجالَ عَلانِيَةً دُونَ حَياءٍ أوْ خَجَلٍ ..

فلمَّا فَشَتِ الْفاحِشَةُ ، وعَمَّ فَسَادُهُمْ ، أرْسَلَ اللهُ ـ تعالى ـ إلَيْهِمْ لُوطًا نبيًّا .. فوعظَهُمْ لُوطٌ عليه السلام وحاولَ مِرارًا وتكْرارًا أنْ يَجْعَلَهُمْ يُقْلِعُونَ عَنِ ارْتكابِ الْمَعاصى ، خاصَّةً هذه الْمَعصيَةَ الْجديدة ، دُونَ جدْوى ..

قالَ لَهُمْ لُوطٌ عليه السلام إنَّ ما يَفْعَلُونَهُ مِنَ الْمعاصِى حَرَامٌ ، وسَوْفَ يحاسِبُهُمُ اللهُ ـ تعالى ـ علَيْهِ فى الآخِرَةِ حِسابًا عَسيرًا ، وإنْ لَمْ يُقْلِعوا عَنْهُ فقدْ يُعَجِّلُ لَهُمُ الْعَذابَ فى الدُّنيا ، ولكِنَّ الْقَوْمَ لَمْ يسْتَمِعُوا إلى نُصْحِهِ ، أوْ يَعْمَلُوا بِهِ ..

ولَمْ يكْتَفُوا بذلك ، بلْ طالبُوا لُوطًا وآلَهُ بأَنْ يَخْرُجُوا مِنْ بَلْدَتِهِمْ ..

وكانَ تبْريرُهُمْ لإخْراجِ آلِ لُوطٍ مِنْ بَلْدَتِهِمْ أَنَّهُمْ أُناسٌ يَتطَهَّرونَ ، وكأَنَّ الطُّهْرَ فى (سَدُوم) قَدْ أَصْبَحَ جَرِيمةً يُعَاقَبُ صَاحِبُها بالطَّرْدِ مِن الْبَلْدَةِ ، بيْنما يَبْقى العُصاةُ والْمُجْرِمونَ ..

وكانَ لوطٌ عليه السلام غريبًا عَنْ (سَدُوم) ولِذلكَ كانَ ضَعيفًا بيْنَهُمْ ، ولَمْ تكُنْ لهُ قُوَّةٌ تَنْصُرُه وتَشُدُّ عَضُدَهُ ، ولَوْ كانَتْ لهُ هذه الْقُوَّةُ لَقاتَلَ أهْلَ (سَدُوم) على مَعَاصِيهِمْ ..

وكانَ ممَّا يُحْزِنُ نبيَّ اللهِ لُوطًا عليه السلام أنَّ قَوْمَه كانوا يقُومونَ بارْتكابِ مَعَاصِيهِمْ عَلانِيَةً بَعْضُهُمْ مَعَ البَعْضِ دُونَ خجلٍ أوْ خَوْفٍ مِنَ اللهِ تعالى ..

وكانَ مِمَّا يُحْزِنُهُ أَكْثَرَ أَنَّهُمْ لَمْ يَتْرُكُوا ضَيْفًا أوْ غريبًا يدْخُلُ قَرْيَتَهُمْ ، إلا وارْتكَبُوا مَعَهُ الْفاحِشَةَ بالْقُوَّةِ ..



وقَدْ أمْضى لُوطٌ عليه السلام سَنواتٍ طِوالًا وهو يَعِظُ قَوْمَهُ ، دُونَ أنْ يُؤْمِنَ بهِ أحَدٌ سِوَى ابْنَتَيهِ ، حتى زوْجَته كانتْ عاصِيَةً له ..

وشاءَتْ إرادَةُ اللهِ ـ تعالى ـ أنْ يُهْلكَ قَوْمَ لُوطٍ بِذُنوبِهمْ وكُفْرِهمْ وعِصْيانِهِمْ ، فأرْسَلَ إلَيْهم مَلائكَتَهُ ، لِيُوقِعُوا بِهِمُ الْعَذابَ فى صُورَةِ ثَلاثةِ رِجالٍ حِسانِ الْوُجُوهِ والْهَيْئَةِ ..

وقَدْ قَدَّمْنا قِصَّةَ مُرُورِ هؤلاءِ الْملائكَة بِنَبيِّ اللهِ إبْراهيمَ عليه السلام وتَبْشيرِهِمْ لإبْراهيمَ وسَارَّةَ بإسْحاق ويَعْقُوبَ ، كما قَدَّمْنا أنَّ إبْراهيمَ عليه السلام لَمَّا عَلِمَ مِنَ الْمَلائِكَةِ أنَّهُمْ ذاهِبُونَ إلى (سَدُوم) لإيقاعِ الْعَذابِ بقَوْمِ لوطٍ ، قَدْ جادَلَ الْمَلائِكَةَ ، مُحاوِلًا الشَّفاعَةَ لِقومِ لُوطٍ ، حتى لا يُوقِعَ بِهِمُ الْمَلائِكَةُ الْعَذابَ ، فأخْبَرَهُ الْمَلائِكَةُ أنَّ مَشِيئَةَ اللهِ قَدِ اقْتَضتْ إهْلاكَ هؤُلاءِ الْقَوْمِ الْعَاصِين الضَّالِّينَ ..

ثُمَّ مضى الْمَلائِكَةُ إلى قَرْيَةِ (سَدُوم) لِتَنْفيذِ أَمْرِ اللهِ ـ تعالى ـ فى قَوْمِ لُوطٍ ..

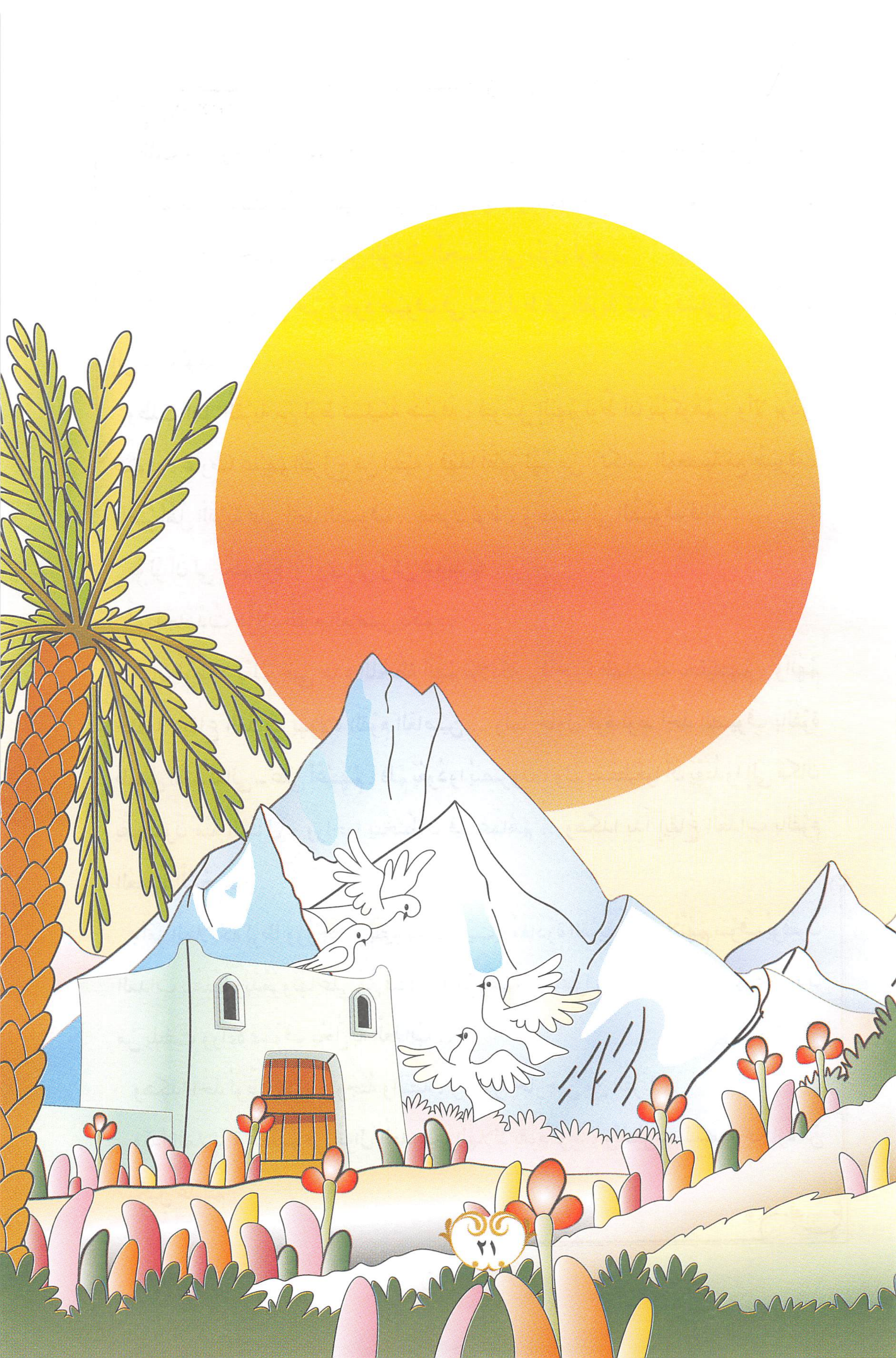
وعلى مَشارِفِ الْقَرْيةِ ، قابلَ الملائكَةُ الثَّلاثَةُ (وهُمْ فى صُورَةِ رجالٍ حِسانِ الْوُجُوه) لُوطًا عليه السلام وأفْهَمُوهُ أنَّهُمْ غُرباءُ عَنِ الْقَرْيَةِ ، وطَلَبُوا مِنْهُ أنْ يَنْزِلُوا ضُيُوفًا عَلَيْهِ هذهِ اللَّيْلَةَ .. ولَمْ يعْرِفْ لُوطٌ أنَّهُمْ مَلائِكَةٌ ..

فَحَزِنَ لُوطٌ عليه السلام حُزْنًا شَدِيدًا ، وحاولَ أنْ يُفهِمَهُمْ أنهُمْ يَجِبُ أنْ يَنْصرِفُوا عَنْ هذهِ الْقَريةِ فَوْرًا ..

وأَنَّهُمْ لا يَجِبُ أَنْ يَنْزِلوا ضُيُوفًا هُنا أَبَدًا ، لأَنَّ أَهْلَ هذه الْقَرْيَةِ خُبَثاءُ عاصُونَ ، بلْ إنَّهُمْ مِنْ شِرَارِ خَلْقِ اللهِ فى الأَرْضِ ، ولذلكَ لا يَرْعَوْنَ حُرْمَةً لِضَيْفٍ أَوْ غَيْرِ ضَيْفٍ ، لكِنَّ الْملائِكَةَ أصَرُّوا على الْبَقاء ..

وأَمامَ إصْرارِهِمْ صَحِبَهُمْ لُوطٌ إلى مَنْزِلِه ، وحَمِدَ اللهَ عَلى أنَّ أَحَدًا مِنْ أهْلِ الْقَرْيةِ لَمْ يَرَهُمْ مَعَهُ ..

فدَخَلَ وأغْلَقَ خلْفَهُ بابَ الدَّارِ بإحْكامٍ..



وطلبَ مِنْ زَوْجَته ألا تُخبِرَ أحَدًا مِنْ أهْلِ الْقَرْيَةِ عَنْ وُجودِ ضُيوفٍ لَدَيْهِ هذهِ اللَّيْلَة .. لكِنَّ زَوْجَةَ لوطٍ قدْ خانَتِ الأمانَةَ التى حَمَّلَها لها زَوْجُها ، وتسَلَّلتْ خارجَةً مِنَ الْمَنْزل ، فأخْبرتْ أهْلَ الْقَرْيَةِ عنْ وُجودِ ضُيُوفٍ مِنَ الرِّجالِ الْحِسانِ فى مَنْزِلِ لُوطٍ ..

وبِسُرْعَةِ الْبَرْقِ انْتَشر خبَرُ وُجودِ ضُيُوفٍ فى بَيْتِ لُوطٍ فى الْقَرْيَةِ كُلِّها ، فسَارَعَ أهْلُ الْقَرْيَةِ إلى بيْتِ لوُطٍ ..

وطلَبَ أهْلُ الْقَرْيَةِ مِنْ لوُطٍ تَسْليمَهُ ضُيُوفَهُ ، فتوَسَّلَ إليْهِمْ لُوطٌ أنْ يَتْرُكُوهُمْ ، وألا يُؤْذُوا ضُيُوفَهُ ، عارِضًا علَيْهِمُ التَّزَوُّجَ مِنَ ابْنَتَيْهِ ، فَهَذا أطْهَرُ لَهُمْ مِنَ ارْتِكابِ الْمَعصِيَةِ مَعَ ضُيُوفِهِ ، فأصَرَّ أهْلُ الْقَرْيَةِ على أخْذِ الضُّيوفِ .. فحزِنَ لُوطٌ ، والْتَفَتَ إلى الضُّيُوف قائِلًا :

﴿ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴾ .

أىْ لجاهَدْتُ هؤُلاءِ الْقَوْمَ العَاصينَ بكُمْ ..

وكانَ لُوطٌ لا يَعْلَمُ حتى هذه اللَّحْظَةِ أنَّهُمْ مَلائِكَةٌ ، فأَخْبَرهُ الْملائكَةُ بحَقيقتِهِمْ ، وأنَّهُمْ جاءُوا لإيقاعِ الْعذَابِ بهؤلاءِ الْقَوْمِ الْعَاصِينَ .. ولمَّا حَاولَ قوْمُ لوطٍ أَخْذَ الضُّيوفِ بالْقُوَّةِ طَمَسَ اللهُ ـ تعالى ـ على أعْيُنِهِمْ ، فلَمْ يَعُودُوا يُبْصِرونَ ، ولَمْ يسْتَطيعُوا أنْ يَهْتَدُوا إلى مَكانٍ يقْتَحِمونَ منْهُ الْمَنْزِلَ ، وراحُوا يتخبَّطُونَ فى عَماهُمْ .. وهكذا بدأَ إيقاعُ الْعَذابِ بالْقَوْمِ الْعُصاةِ الْمُجْرِمينَ ..

وأَمَرَ الْملائِكَةُ لُوطًا وزوْجَتَهُ وابْنَتَيْهِ بِتَرْكِ الْبَيْتِ ومُغَادَرَةِ الْقَرْيَةِ لَيْلًا ، لأَنَّهُمْ سَوْفَ يُوقِعُونَ الْعَذَابَ بِأَهْلِهَا ويُدَمِّرُونَها على مَنْ فِيها .. وأَمَرُوهُمْ ألا يلْتَفِتُوا وراءَهُمْ فى أَثْناءِ سَيْرِهِمْ ، لأنَّ مَنْ يلْتَفِتْ وراءَهُ فسَوْفَ يَحُلُّ به الْعَذابُ ..

وهكذا أخَذَ لُوطٌ عليه السلام زَوْجَتَهُ وابْنَتَيهِ ، وساروا خارجينَ مِنَ الْقَرْيَةِ ..

وبَدأَ الْملائِكَةُ عَمَلَهُمْ فى إنْزالِ الْعَذَابِ والْهَلاكِ بِقَوْمِ لوطٍ ، وأمْطَرتِ السَّماءُ حِجارةً مِنْ سِجّيلٍ علَيْهِمْ ..



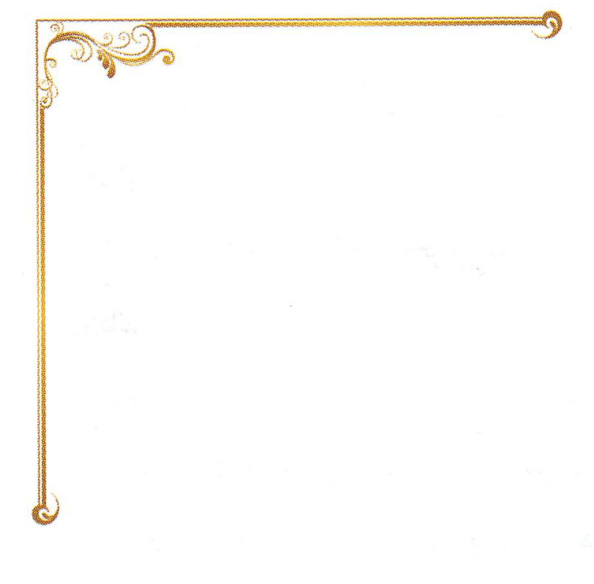
وفى لَحظاتٍ تَهدَّمَتِ الْبُيُوتُ ، وتَطَايرَتِ الأَحْجَارُ فى الْهواءِ ، وانْهارَ كُلُّ شَىْءٍ .. وكانَ الَّذى يُحاوِلُ الْفرارَ منْهُمْ يَسْقُطُ عليْهِ حَجَرٌ فيَقْتُلُهُ .. وكانتْ أصْواتُ الْقَوْمِ تُسْمَعُ عَالِيَةً ، كما كانَتْ أصْواتُ الانْفجارِ والدَّمارِ تَهُزُّ الأرْضَ هَزًّا ..

وبيْنَما كانَ لُوطٌ وزَوْجَتُهُ وابْنتاهُ يَبتعِدونَ عَنِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمَةِ ، الْتَفَتَتْ زَوْجَةُ لُوطٍ لِتَرَى ما حَلَّ بِقَوْمِها فوَقَع عَلَيْها الْعَذَابُ وماتَتْ لِتَلْحَقَ بِقَوْمِها ؛ لأَنَّها كانتْ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ..

ونَجَّى اللهُ نَبِيَّهُ لُوطًا عليه السلام وابْنَتَيْهِ ..

تَمَّتْ





قصص الأنبياء

إسماعيل عليه السلام





رزَقَ الله تعالَى نَبِيَّهُ إبْراهيمَ عليه السلام بِأَوَّلِ ابْنٍ مِن ابْنَيْه ، وهوَ إسْماعيلُ مِنْ زَوْجَتهِ هَاجَر ..

ثمَّ أمرَهُ الله تعالَى أنْ يأْخُذَ هَاجَرَ وإسْماعيلَ ، ويَذْهَبَ بهمَا إلَى مَكَّةَ الْمُكَرَّمَةِ ، لِيُقيمَا هُناك ..

فأخَذَهُما إبْراهيمُ عليه السلام وتركَهُمَا فى صَحْراءِ مَكَّةَ ، بِجوارِ أَساسِ بَيْتِ اللهِ الْحرَام الْقَدِيمِ ، حيْثُ لا زَرْعَ ولا مَاءَ ، ولا أَنِيسَ مِنَ الْبَشَرِ ..

وترَكَ لهُما جِراباً فيه تَمْرٌ ، وجَرَّةً فيها مَاءٌ ، وهَمَّ بالرَّحِيلِ ، فنظَرَتْ إِلَيْهِ السَّيِّدَةُ هَاجَرُ وقالَتْ :

ـ يا إبْراهيمُ ، أيْنَ تَذْهَبُ وتَتْرُكُنا بهذا الْوادِى ، الَّذى لَيْسَ فيه إنْسٌ ولا شَىْءٌ ؟!

فترَكَهَا إبْراهيمُ ووَاصَلَ سَيْرَهُ دُونَ أنْ يَرُدَّ عليها ، فأَخَذَتْ هَاجَرُ تُكَرِّرُ سُؤالَهَا ، وإبْراهيمُ لا يَلْتَفِتُ إِلَيْها ..

وفى النِّهايَةِ سأَلَتْهُ هاجَرُ ، قَائِلَةً :

ـ هَلِ اللهُ أمَرَكَ بذلِك ؟!

فقالَ إبْراهيمُ عليه السلام :

ـ نَعَمْ ..

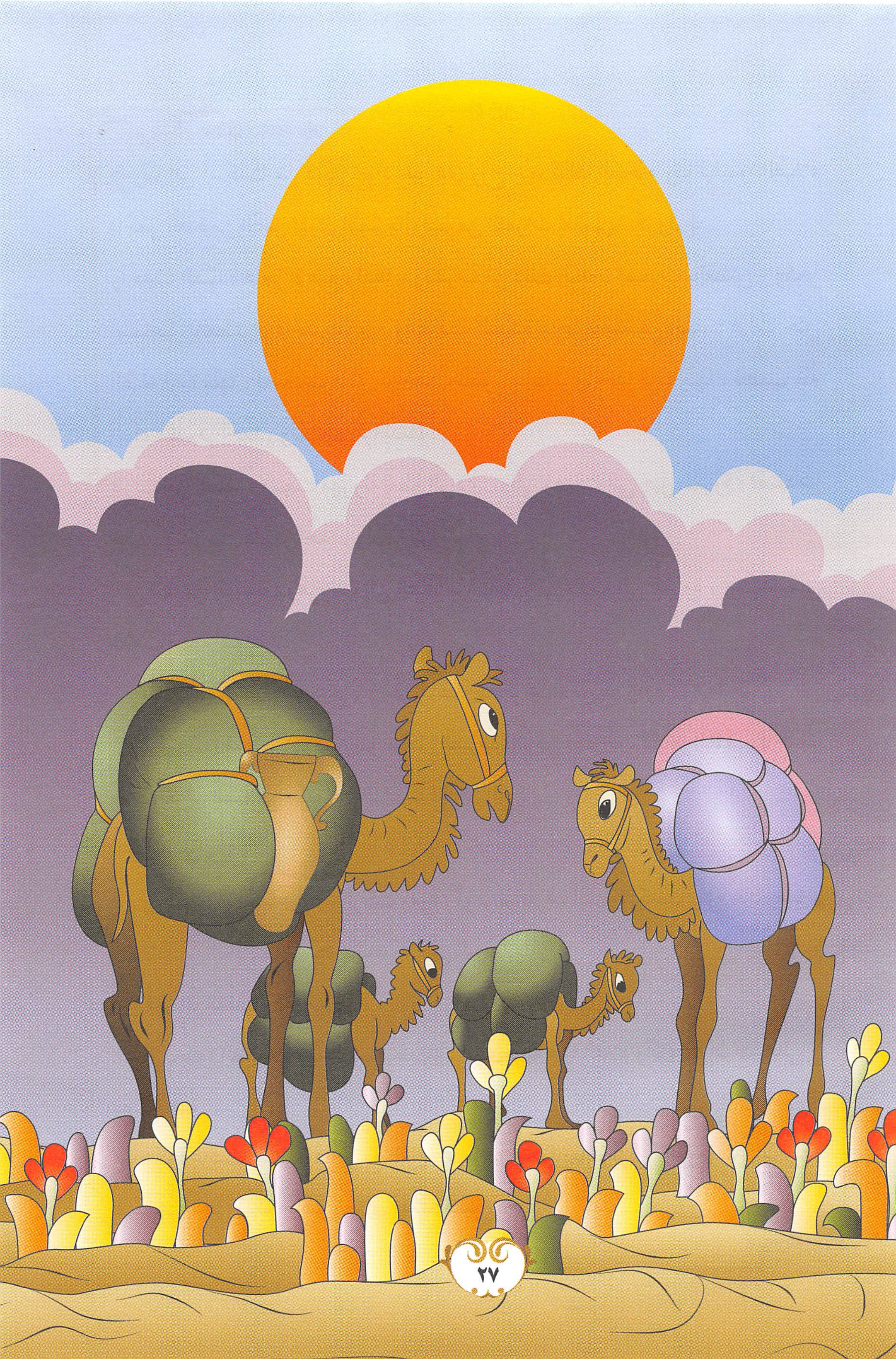
فقَالَتْ هَاجَرُ رَاضِيَةً بقَضاءِ اللهِ واخْتِيارِه :

ـ إذَنْ لا يُضَيِّعُنا اللهُ أبَدًا ..

ورَجَعَتْ هَاجَرُ إلى ولِيدِهَا تُرْضِعُهُ ..

أمَّا إبْراهيمُ عليه السلام فقَدِ انْطَلَقَ ، حتَّى إذا صَارَ عِنْدَ رَبْوَةٍ تُوارِيهِ عَنْهُمَا ، نظَرَ إلى الْمَوْضعِ الَّذى فيه أَسَاسُ الْبَيْتِ الْحرامِ ، ورفعَ يَدَيْهِ إلى السَّماء دَاعِيًا رَبَّهُ بهذا الدُّعاءِ :





﴿ رَبَّنَا إِنِّى أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِى بِوادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ فاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِى إِلَيْهِمْ وارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَراتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾ .

وأَخَذَتِ السَّيِّدَةُ هاجَرُ تُرْضِعُ وَلَدَها ، وتَشْرَبُ مِنْ ذلِكَ الْماءِ ، فشَعَرَتْ بالْعَطَشِ ، وشَعَر إسْماعيلُ بالْعَطَشِ ، فأخَذَ يتلَوَّى ، وانْطَلَقتِ السَّيِّدةُ هاجرُ باحِثَةً عَنِ الْماء ، فَرَأَتْ جَبَلَ الصَّفَا قَرِيبًا مِنْهَا ، فصَعَدَتْ فوْقَهُ ، وأخَذَتْ تَنْظُرُ ، عَلَّها ترَى أحدًا قَرِيبًا مِنها ، لِتَطْلُبَ مِنْهُ الْماءَ ، فَلَمْ تَرَ أحدًا ، ولَمْ تجِدْ أثرًا لِلْماءِ ..

فنزَلَتْ مِنَ الصَّفا ، وسَعَتْ مُهَرْوِلَةً تقْطَعُ الْوَادِىَ ، حتَّى وصَلَتْ إِلَى جَبَلِ الْمَرْوَةِ ، فصَعَدَتْ عليْهِ ، ونظَرَتْ ، فلَمْ ترَ أحدًا ، ولَمْ تَرَ أثرًا لِلْماءِ ..

فنزلَتْ مِنَ الْمَرْوَةِ ، وهَرْوَلَتْ إِلَى الصَّفا مَرَّةً ثانيةً ، ثم عادَتْ إِلَى الْمَرْوَةِ ، وهكَذا حَتَّى قَطَعتْ سَبْعَةَ أشْواطٍ ..

وعِنْدَمَا عادَتْ إِلَى إسْماعيلَ ، وَجَدَتِ الْماءَ يتفجَّرُ عِنْدَهُ منْ بِئْرِ زَمْزَمَ ..

ويُقَالُ : إِنَّ اللهَ ـ تعالى ـ قدْ أرْسَلَ مَلَكًا ، فضرَبَ الأَرْضَ بجَناحِه ، فتَفَجَّر الْماءُ .. فأخذَتْ هاجَرُ تَغْرِفُ الْماءَ فِى جرَّتِها ، والْماءُ ينْدَفِعُ كالنَّافُورَةِ ..

قالَ النَّبى ﷺ :

« يَرْحَمُ اللهُ أُمَّ إِسْماعيل ، لَوْ تَركَتْ زَمْزَم ، أوْ لَوْ لَمْ تَغْرِفِ الْماءَ ، لكانَتْ زَمْزَمُ عَيْنًا مَعِينًا »

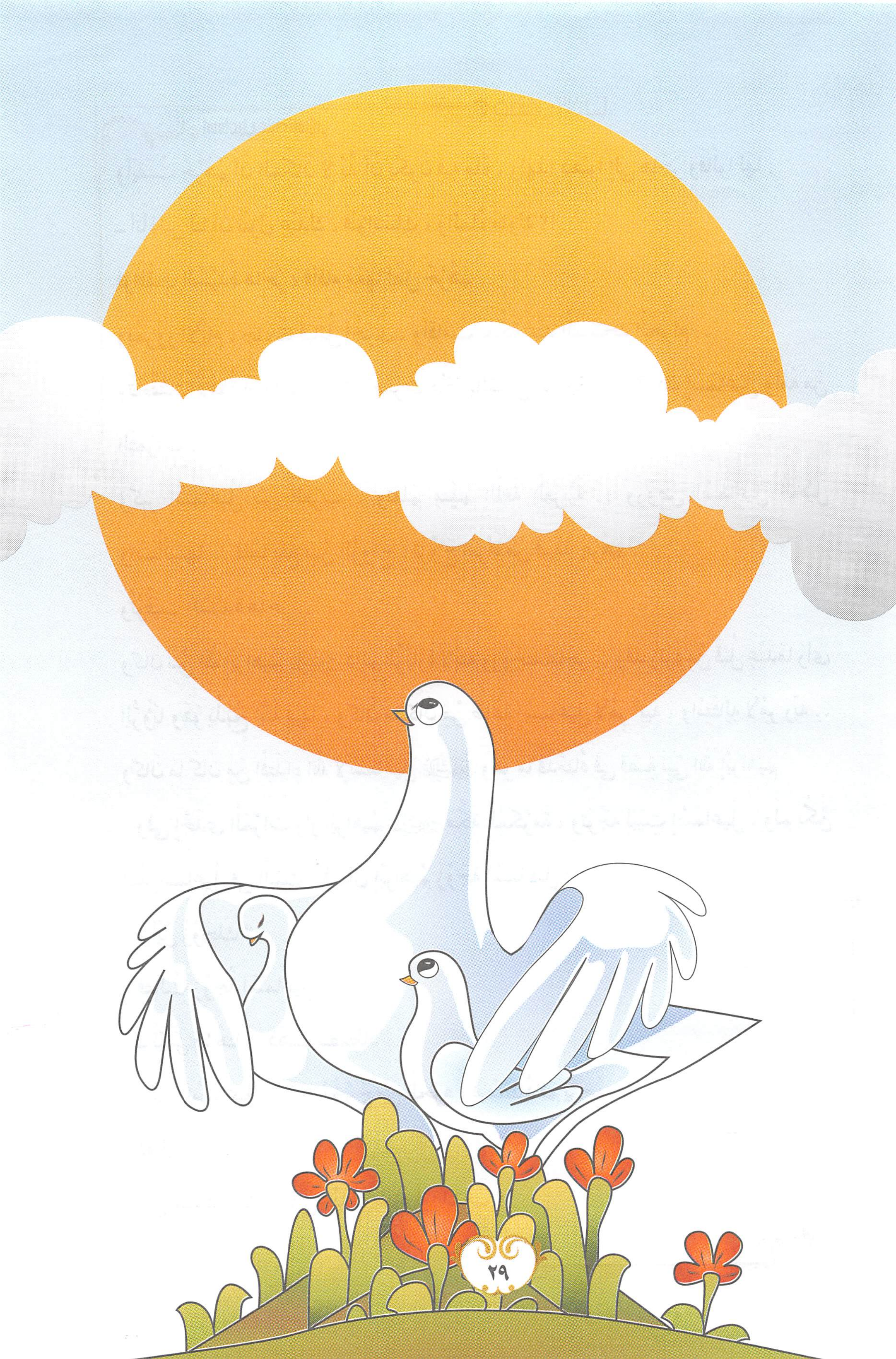
أىْ لاسْتَمَرَّ الْماءُ يتدفَّقُ مِنْها كالنَّافُورَةِ حتَّى الْيَوْم ..

ويُقَالُ انَّ الْمَلَكَ ، قالَ لِهاجَر :

ـ لا تَخافُوا الضَّيْعَةَ ، فإنَّ ها هُنا بَيت اللهِ ، الَّذِى يَبْنِيهِ هذَا الْغُلامُ وأَبُوهُ ..وإِنَّ اللهَ تعالَى لا يُضِيعُ أَهْلَهُ ..

وهكَذا عاشَتِ السَّيِّدَةُ هاجَرُ مع طِفْلِها إِسْماعِيلَ بِجوارِ ماءِ زَمْزَمَ ، حتَّى مَرَّتْ قَرِيبًا مِنْهُم قَبِيلَةٌ عَرَبِيَّةٌ هى قَبِيلَةُ جُرْهُمَ ، ورَأَى أهْلُها الطُّيور تحُطُّ على الْماءِ ..





وأيْقَنت جُرْهُم أنّ الْمكانَ لا بُدّ أنْ يَكُونَ فِيهِ مَاءٌ ، ولِهذا ذَهبُوا إلى هَاجَرَ وقَالُوا لها :

ـ أتَأْذنين لنا أنْ ننْزِلَ عِنْدكِ ، فنُؤانِسكِ ، والْماءُ مَاؤُكِ ؟!

فوافقَتِ السّيِّدَةُ هاجَرُ ، فأقَام معَها أهْلُ جُرْهُم ..

وبِمُرُور الأيّامِ ، جاءَتْ قَبائلُ أُخْرَى ، وأَقامَتْ بِمَكّةَ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ ..

وتَحقّقَتْ دَعْوَةُ إبْراهيمَ عليه السلام فَعمرتْ مَكّةُ بالقَبائِلِ الْعَربِيّةِ ، ورزقَ الله إسْماعيلَ وأُمّهُ مِنَ الثّمرَات ..

وكَبِرَ إسْماعيلُ بيْنَ الْعَرَب ، وتعلّمَ مِنْهُمُ اللُّغَةَ الْعَربِيّةَ .. ورَوّضَ إسْماعيلُ الْخيْلَ واسْتأْنَسَها .. فلمّا بَلغَ سِنّ الزّواجِ ، تزوّجَ امْرأَةً مِنْ قَبِيلَةِ جُرْهُم ..

وتُوُفِّيَتِ السّيِّدةُ هَاجَر ..

وكَانَ نَبِيُّ الله إبْراهيمُ عليه السلام دَائِمَ الزِّيارَةِ لابْنهِ وزَوْجته هَاجَر .. وقدْ زارَهُ مِنْ قَبْلُ عِنْدَما رَأى الرُّؤْيا وهوَ يذْبحُ ابْنَهُ فِيها ، وكَانَ ما كَانَ مِنْ طاعَةِ إسْماعيلَ لأمْرِ أَبِيهِ ، وامْتثالِهِ لأَمْرِ ربِّه ..

وكانَ مَا كَانَ مِنَ افْتِداءِ الله لإسْماعيلَ عليه السلام وهُو مَا قَدّمْناهُ فى قِصّةِ نبِيِّ الله إبْراهيم ..

وفى إحْدَى الْمَرّات زارَ إبْراهيمُ عليه السلام مَكّةَ الْمُكرّمَةَ ، وتوَجّه لِبَيْتِ إسْماعيلَ ، ولَم يكُنْ ابْنُهُ إسْماعيلُ فى الْبَيْتِ ، فسأَلَ إبْراهيمُ زَوْجَةَ إسْماعِيلَ :

ـ أيْنَ زَوْجُكِ ؟

فقالَتْ زَوْجَةُ إسْماعيل :

ـ لَيْسَ هَا هُنا .. ذهَبَ لِيَصْطَادَ ..

وكانَ إسْماعيلُ عليه السلام يَخْرُجُ مِنَ الْحَرَمِ ، فيصْطَادُ ثمّ يَرْجِعُ ..

فقالَ إبْراهيمُ عليه السلام :

ـ هلْ عِنْدكِ ضِيافَةٌ ؟ هلْ عِنْدَكِ طَعامٌ أَوْ شَرَابٌ ؟

فقالَتْ زوْجَةُ إسْماعيل :

ـ ليْسَ عِنْدَنا طَعامٌ أوْ شَرابٌ .. نحْنُ فى ضِيقٍ ، ورِزْقُنا قَلِيلٌ ..

لَمْ تحْمَدْ زَوْجَةُ إسْماعيلَ نِعَمَ اللهِ عَلَيْها ، ولَمْ تَرْضَ أنْ تُضَيِّفَ أباهُ إبْراهيمَ .. ولَمْ يرْضَ إبْراهيمُ عَنْ عدَمِ قَناعَتِها ..

فقالَ لهَا إبْراهيمُ عليه السلام :

ـ إذَا جاءَ زَوْجُكِ فأقْرِئِيهِ السَّلامَ ، وقُولِى لَهُ ، فَلْيُغَيِّرْ عَتبَةَ بَابِه ..

فَلمَّا حضرَ إسْماعيلُ وقصَّتْ عليْه زَوْجَتُهُ ، مَا قَالَهُ لهَا الشَّيْخُ ، ووصَفَتْ لهُ هَيْئَتَهُ ، عَرَفَ إسْماعيلُ أنَّ أباهُ قَدْ زارَهُ ، وأنَّهُ غَيْرُ راضٍ عَنْ زوَاجِهِ مِنْ زَوْجَتِه ، فطَلَّقها وتزَوَّجَ امْرأةً أُخْرَى ..

وغابَ إبْراهيمُ عليه السلام فَتْرَةً مِنَ الزَّمن ثمَّ زارَ مَكَّةَ ، وتوَجَّهَ إلى بَيْتِ إسْماعيل ، ولمْ يكُنْ إسْماعيلُ مَوْجُودًا فى الْبَيْتِ ، فلمَّا رأى زَوْجَتَهُ الْجَدِيدَةَ سألهَا :

ـ أيْنَ زَوجُكِ ؟

فقالَتْ :

ـ ذهبَ يصْطادُ ، وسَيَجِيءُ الآنَ إنْ شَاءَ اللهُ ..

ورحَّبَتْ بهِ ، وطَلَبَتْ مِنْهُ أنْ يَدْخُلَ لِيَسْتَرِيحَ مِنْ عَنَاءِ السَّفَرِ ..

فسَألَها إبْراهيمُ قائِلاً :

ـ هلْ عِنْدَكِ ضِيَافَةٌ ؟

فقالَتْ :

ـ نَعَمْ .. نَحْنُ بِخَيْرٍ وَفِى سَعَةٍ مِنَ الْعَيْشِ والْحَمْدُ للهِ ..

فسألَهَا :

ـ هلْ عِنْدَكِ خُبْزٌ أَوْ قَمْحٌ أَوْ شَعيرٌ أَوْ تَمْرٌ ؟



فجاءَتْهُ باللَّحْمِ واللَّبَنِ .. فدَعَا لهَا بالْبَرَكَةِ فى الطَّعَامِ ..

قالَ رَسولُ الله ﷺ :

« فلَوْ جاءَتْ يَوْمَئِذٍ بخُبْزٍ أَوْ بُرٍّ (قمح) أَوْ شَعِيرٍ ، لكانَتْ أَكْثَرَ أرْضِ الله بُرًا وشَعيرًا وتَمْرًا »

يقْصدُ لكانَتْ مَكّةُ الْمكرَّمَةُ والْجَزيرَةُ الْعَربيَّةُ أَغْنَى الْبلادِ بهذه الأَصْنافِ ..

فقالَ لهَا إبْراهيمُ عليه السلام :

ـ إذا جاءَ زَوْجُكِ فأَقرِئيهِ السَّلامَ ، وقُولى لَهُ : قَدِ اسْتقَامَتْ عَتبَةُ بَابِكَ ..

فلمَّا جاءَ إسْماعيلُ ، سأَلَ زَوْجَتَهُ :

ـ هلْ زَارَنا أحَدٌ ؟

فقالَتْ لَهُ :

ـ نعَمْ .. زارنَا شَيْخٌ هوَ أَحْسَنُ النَّاسِ وَجْهًا ، وأَطْيَبُهُمْ ريحاً .. وقصَّتْ عليْهِ ما قالَهُ لها أَبُوهُ ، وما قالَتْهُ لَهُ ، وكيْفَ أنَّهُ دعَا لها بالْبَرَكَةِ فى الطَّعَامِ .. ثم قالتْ لَهُ :

ـ وقالَ لِى : إذاَ جاءَ زَوْجُكِ ، فأقرِئيهِ السَّلامَ ، وقُولى لَهُ : قدِ اسْتَقَامتْ عَتبَةُ بَابِكَ ..

فعرَفَ أنَّ أباهُ قدْ زارَهُ ، وأَنَّهُ راضٍ الآنَ عنْ زوَاجِهِ منْ هذهِ الْمَرأَةِ ..

وغابَ إبراهيمُ عليه السلام ما غَابَ عَنْ وَلَدِه ، حتّى أمرَهُ الله تعالَى بِبِنَاءِ الْبَيْتِ الْحرَام ، فجاءَ إِلى مَكّةَ الْمُكَرَّمَةِ .. وكانَ إسْماعيلُ جالِسًا بِجوارِ بِئْرِ زَمْزَمَ يَبْرِى نَبْلاً .. فلمَّا رآهُ إِسْماعيلُ نهضَ وعَانَقَهُ مُرَحِّبًا بِهِ ..

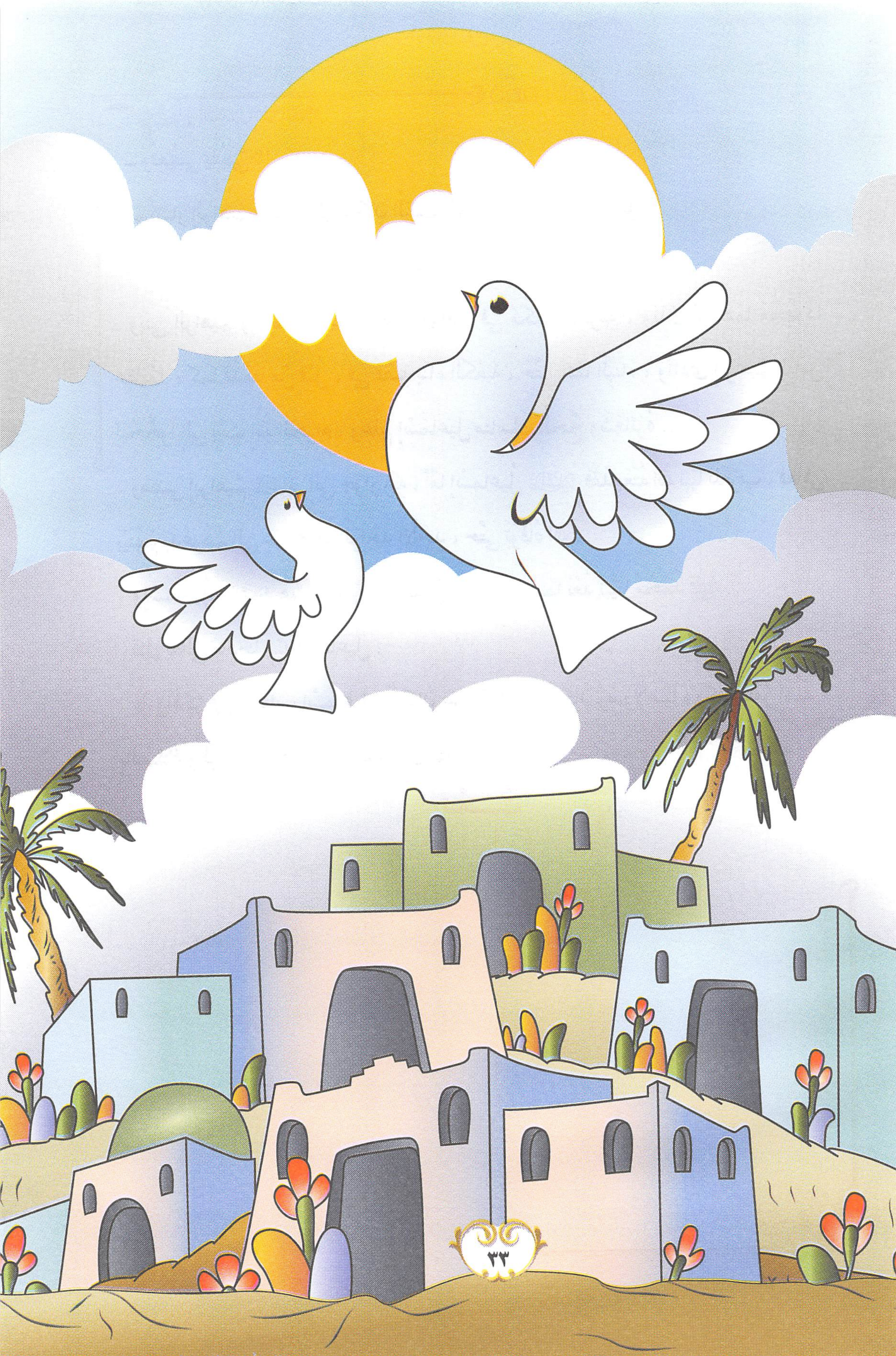
فلمَّا انْتَهى إبْراهيمُ عليه السلام مِنْ عِنَاقِ وَلَدِه ، قالَ لَهُ :

ـ يا إِسْماعيلُ ، إنَّ الله قَدْ أَمَرَنى بِأَمْرٍ ..

فَقالَ إِسْماعيلُ :

ـ فاصْنَعْ مَا أَمرَكَ بِهِ رَبُّكَ يا أَبَتِ ..

فقالَ إِبْراهيمُ :



ـ وتُعِينُنِى يا بُنَىَّ ؟!

ثمَّ أَشَارَ إبْراهيمُ عليه السلام إلى مَكانِ الْبَيْتِ الْحرَامَ ، وقالَ لإسْماعيل :

ـ إنَّ الله قَدْ أمَرنى أنْ أَبْنِىَ بَيْتًا لَهُ ها هُنَا ..

وبنَى إبْراهيمُ وإسْماعيلُ بيْتَ الله الْحرَامِ ، فى مَكَّةَ الْمُكَرَّمَةِ ، وبَذلَ كِلاهُمَا مَجْهُودًا عظِيمًا ، كما قدَّمْنَا مِنْ قبْلُ ، فى قِصَّةِ بِناء الْكَعْبَةِ ، حَتَّى أتمَّا الْبناءَ ، ونادَى إبْراهيمُ النَّاس لِيَحُجُّوا إلى بيْتِ اللهِ الْحرَامِ ، وعلَّمَ إسْمَاعيلَ مناسِكَ الْحَجِّ وشَعَائِرَهُ ..

ومضَى إبراهيمُ عليه السلام إلَى جِوَارِ رَبِّهِ ، أمَّا إسْماعيلُ عليه السلام فقَدْ بعَثَهُ الله نَبِيًّا لِلْعَرَبِ ، فعاشَ بَيْنَهُمْ يَدْعُوهُمْ إلَى عِبادَةِ اللهِ الْوَاحِدِ الأَحَدِ ، حتَّى توَفَّاهُ الله ..

وإسْماعيلُ عليه السلام هوَ أبو الْعَرَبِ ، الذينَ جاءَ مِنْهُمْ فِيمَا بَعْدُ نَبِيُّنا مُحَمَّدٌ ﷺ ..

قالَ تعالَى مَادِحًا نَبِيَّهُ إسْماعيلَ :

﴿ واذْكُرْ فى الْكِتَابِ إسْماعِيلَ إنَّهُ كانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وكانَ رَسُولاً نَبِيًّا ۝ وكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلاةِ والزَّكَاةِ ، وكَانَ عِنْدَ رَبِّه مَرْضِيًّا ﴾ ..

تَمَّــتْ





يوسف عليه السلام





الحُلم

نَبيُّ اللهِ يوسُفُ عليه السلام هو يوسُفُ بْنُ يَعْقُوبَ بْنُ إسْحَاقَ بْنُ إبْراهيمَ - عليهم السلام - .

فهو نَبيٌّ مِنْ سُلالَةِ أنْبياءَ ..

وقدْ ذُكِرَتْ قصَّةُ يوسُفَ كامِلةً فى الْقرآنِ الْكَريمِ ، فِي « سُورَةِ يوسُف » ..

وسَبَبُ نُزُولِ هذِه السُّورَةِ ، أَنَّ الْيَهُودَ قدْ طَلَبُوا مِنَ الرَّسولِ ﷺ أَنْ يقُصَّ عَلَيْهِمْ قِصَّةَ نَبِيِّهِم يوسُف ، فأنْزَلَ اللهُ تعالَى قِصَّتَهُ كامِلَةً في هذِه السُّورَةِ ..

وتَبْدَأُ قِصَّةُ يُوسُف بِحُلْمٍ .. حُلْمٍ رَآهُ الصَّغيرُ يُوسُفُ ..

فمَاذا رأى يُوسُفُ ؟!

رأى يُوسُفُ أنَّ أحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا والشَّمْسَ والْقَمَرَ سَاجِدينَ لَهُ ..

أَىّ حُلْمٍ غَريبٍ هذا الَّذى رآهُ يُوسُفُ ، وهو لَمْ يَزَلْ صَبيًّا صَغيرًا ؟! ولكِنَّ الْغَرابَةَ تَزولُ إذا عَلِمْنا أنَّ يُوسُفَ كانَ لَهُ مِنَ الإِخْوَةِ أَحَدَ عَشَرَ أخًا ..

وذهَب يُوسُفُ إلى أَبيهِ يَعْقُوبَ يقُصُّ علَيْه ما رَآهُ قائلاً :

﴿ يا أبَتِ إنِّى رَأيْتُ أحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا والشَّمْسَ والْقَمَرَ رَأيْتُهُمْ لِي سَاجِدينَ ﴾ .

وأَحَسَّ يَعْقُوبُ مِنَ الرُّؤْيَا الَّتى رآهَا ابْنُهُ ، أَنَّ يُوسُفَ سيَكُونُ لَهُ شَأْنٌ عظِيمٌ ، ولِذلكَ أَمَرَهُ أَلا يَقُصَّ رُؤْياهُ على أَحَدٍ مِنْ إخْوَتِهِ ..

فَلِماذا حذَّرَ يَعْقوبُ ابْنَهُ أَنْ يَحْكِيَ ما رآهُ فى الْحُلْمِ لإِخْوَتِه ؟!

لأَنَّ يُوسُفَ كانَ جميلَ الصُّورَةِ ، وكانَ أَحَبَّ أَبْناءِ يَعْقُوبَ إِلَيْه .. وبِسَبَبِ حُبِّ يَعْقُوبَ الشَّديدِ لِيُوسُفَ وأَخِيهِ بِنْيَامِينَ (وهُمَا أخَوانِ مِنْ أُمٍّ واحِدَةٍ هىَ «رَاحِيلُ» ،بيْنَما كانَ بقِيَّةُ أَبْناءِ يَعْقُوبَ مِنْ ثَلاثِ زَوْجاتٍ أُخْرياتٍ) .. بسبَبِ هذا الْحُبِّ كانَ إِخْوَةُ يُوسُفَ يَحْقِدُونَ علَيْه ، ويكرَهُونَهُ هوَ وأَخاهُ بِنْيَامِين ..

ولِذلكَ خافَ يَعْقوبُ على ابْنِهِ يُوسُفَ مِنْ إخْوَتِه .. خافَ أنْ يُوسْوِسَ لَهمُ الشَّيْطانُ ، فيَكيدُوا لِيُوسُفَ أوْ يُوقِعُوا بهِ الأذَى ، إذَا أحَسُّوا أنَّ اللهَ ـ تعالى ـ قَدْ فضَّلَهُ عَلَيْهِمْ ، أوْ أنَّهُ سَيكُونُ لَهُ شأْنٌ عظِيمٌ فى الْمُسْتَقْبَلِ .

ولِهذَا قالَ يَعْقُوبُ لِيُوسُفَ إنَّ اللهَ يخْتارُه ويخْتَصُّهُ ويُعَلِّمُهُ مِنْ تأْوِيلِ الأَحادِيثِ ..

أىْ أنَّ اللهَ يُهَيِّئُ يوسُفَ مُنْذُ صِغرِهِ ، لِيكونَ قادِرًا على تفْسِيرِ الأَحْلامِ ، ومَعْرفَةِ ما تَرْمُزُ إلَيْه مِنْ أُمُورٍ غامِضَةٍ ، وهذا مِنْ نِعَم اللهِ علَى آلِ يَعْقوبَ ..

وتَمْضى الأَحْداثُ بعْدَ ذلكَ ، فَنرى إخْوَةَ يُوسُفَ ، وقَدِ اجْتمَعُوا معًا يتباحَثُونَ ويتَنَاقَشُونَ فى أَمْرِ يُوسُف وأخِيهِ بنْيامين ..

فقالَ أحَدُهُمْ :

ـ إنَّ أبَانا يُحبُّ يوسُفَ وبِنْيامينَ أكْثَرَ مِنَّا جميعًا ، بَلْ ويُقَرِّبُهُما إلَيْه باسْتِمْرارٍ .. فلِماذا ؟!

فردَّ علَيْهِ الآخرُ :

ـ إنَّ أبَانَا لَفِى ضَلالٍ مُبِينٍ ، إذْ يُحِبُّهُما ، ويُفَضِّلُهُما عَلَيْنا ..

فَقالَ الثَّالِثُ :

ـ يَجِبُ أنْ نَتَخلَّصَ مِنْ يُوسُفَ ، حتَّى يُصْبِحَ يَعْقُوبُ خالِصًا لنَا ، فلاَ يُحِبُّ أحَدًا غيْرَنا ..

فَقالَ الرَّابعُ :

ـ نَقْتُلُهُ ونَسْتَريحُ ..

ـ فقالَ الأوَّلُ :

ـ لاَ .. لاَ نُريدُ الْقَتْلَ .. لماذا لاَ نُلْقِيهِ فى الجُبِّ ، فتَلْتَقِطُهُ قافِلةٌ مِنَ الْقَوافِلِ الْمُسافِرةِ فى الصَّحْراء ، ونَسْتريحُ مِنْهُ إلىَ الأبَدِ .. ستَذْهَبُ به الْقَافِلَةُ بعيدًا .. إلى بَلَدٍ آخرَ ، ولَنْ يراهُ أبُونا بَعْدَ ذلِكَ أبَدًا ..



ولَقِىَ هذا الاقْتِراحُ اسْتِحْسانًا مِنْ إِخْوَةِ يُوسُفَ ..

فقَرَّرُوا تَنْفيذَهُ مِنَ الْغَدِ .. ولكِنْ كَيْفَ يأْخُذُونَ يُوسُفَ معَهُمْ إلى الْمَرْعَى ، وهمْ يَعْرِفُونَ مَدى تَمَسُّكِ أَبِيهِمْ بِهِ ؟!

لَقَدْ قَرَّرُوا أَنْ يَحْتالوا على أَبِيهِمْ ، حتَّى يَسْمَحَ لهُمْ بأَخْذِ أَخِيهِمْ مَعَهُمْ .. لِذلك ذهَبُوا إِلى يَعْقُوبَ ، وقالُوا لَهُ :

ـ إِنَّ يُوسُفَ أَخُونا ، وكُلُّنا نُحِبُّهُ مِثْلَمَا تُحِبُّه أَنْتَ تمامًا ..

فَقالَ يَعْقُوبُ :

ـ أَرْجُو أَنْ تكُونوا صَادقينَ فى مَشَاعِرِكُمْ نَحْوَهُ ..

ولكنْ ماذا تُريدُون ؟!

فقالَ إِخْوَةُ يُوسُفَ :

ـ لماذا تُبْقى يُوسُفَ بِجوارِكَ دَائمًا ؟! لِماذا لا تَسْمَحُ لَهُ لِيَذْهَبَ معَنا إلى الْمَرْعَى ، لِيَسْتَمْتِعَ باللَّعِبِ والْمَرَحِ مِثْلَ بَقيَّةِ الْغِلْمَانِ فى سِنِّه ؟!

فردَّ عليْهِمْ يعقُوبُ قائلاً :

ـ كانَ بِوُدِّى أَنْ أُرْسِلَه معَكُمْ ، لكِنَّنى أخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ ، وأَنْتُمْ مَشْغولون عَنْهُ بأَعْمالِكُمْ ..

الصَّحْراءُ مَليئةٌ بالذِّئابِ ..

فَردَّ إِخْوَةُ يُوسُف مُسْتَنْكِرِينَ :

ـ كيْفَ يَحْدُثُ هذا ؟! هَل مِنَ الْمَعْقُولِ أَنْ نَتْرُكَ أَخَانا لِيأْكُلَهُ الذِّئْبُ ، ونَحْنُ كَثيرونَ ؟! لا تَخفْ عَلَيْهِ ، سَنحْرُسُهُ ، ولَنْ يَجْرُؤَ الذِّئْبُ على الاقْتِرابِ مِنْهُ ، وإِلا كُنَّا مِنَ الْخاسِرينَ ..

وهكَذا ظَلَّ إخوةُ يُوسُفَ يُجادلون أبَاهُمْ ، حتَّى أَقْنَعُوهُ بأَنَّ يُوسُفَ سَيَكُونُ مَعَهُمْ فى أمَانٍ ، فَوافقَ يَعْقوبُ على ذَهابِهِ مَعَهُم غدًا إِلى الْمَرْعَى ..



وفى الْيَوْمِ التَّالى اصْطحَبَ الإِخْوَةُ أخاهُمْ يوسُفَ معهُمْ إلى الصَّحْراءِ .. وبَدءوا تَنفيذَ خطَّتِهم الشِّرِّيرَة بالتَّخلُّصِ مِنْ يُوسُفَ .. بَحثُوا عَنْ بِئْرٍ فى طَرِيق الْقَوَافِلِ الْمُسافِرَة بالتِّجارَةِ .. وأَمْسَكُوا يُوسُفَ ونَزَعوا عَنْهُ قَميصَهُ ..

حَاولَ يُوسُفُ عليه السلام أَنْ يُقاومَهُمْ .. لكنَّهُ فشَلَ .. فَهوَ فَرْدٌ وهُم كَثيرُون .. حاوَل أنْ يسْتَعْطِفَهُمْ ، فَلَمْ يُنْصِتُوا له .. وأَلْقَوْهُ فى الْبِئْرِ ..

وأَوْحَى اللهُ ـ تعالى ـ إلَيْه ألا يخَافَ ، لأَنَّه سَوْفَ يُنْجِيهِ مِنَ الْمَوْتِ .. وأَوْحَى إِلَيْه أنَّه سَوْفَ يلْقاهُمْ ، وسَوْفَ يُخبِرُهُمْ بما فَعلوهُ مَعَهُ .. ولَمْ يُصَبْ يُوسُفُ بأَذًى داخِلَ الْبِئْرِ ، لأَنَّ اللهَ كانَ يَحفَظُهُ ..

أمَّا إِخْوَةُ يُوسُف ، فَبَعْدَ أَنِ اطْمَأَنُّوا إلى سُقُوطِ أَخِيهِمْ فى الْبئْرِ ذَبَحوا شَاةً ، ولَطَّخُوا قميصَ يُوسُفَ بدَمِهَا ، وفى الْمسَاءِ ، قادُوا أَغْنامَهُمْ ، عَائدينَ ..وعِنْدَما أَصْبحوا قريبًا مِنَ الدَّارِ أَخذُوا يَبْكُونَ ، ويُمثِّلونَ الْحُزْنَ .. ودَخلوا على أَبِيهِمْ ، فلَمَّا رآهُمْ سَأَلَهُمْ عَنْ سَببِ بُكَائِهِمْ وحُزْنِهِمْ ، فَقالُوا لهُ :

ـ يا أبَانَا ؛ لقَدْ ذهَبْنا نَتسابَقُ مَعًا فى الْجَرْى ، وتركنا يُوسُفَ عِنْدَ غَنَمِنَا وأَشْيائِنا ، فَلمَّا عُدْنا مِنَ السِّباقِ ، لَمْ نَجدْ يُوسُف .. وجَدْنا الذِّئْبَ قَدْ أَكَلَهُ ، ولَمْ يَتْرُكْ مِنْهُ شَيْئًا سِوى قَميصِه .. ونَعْرِفُ أنَّكَ لنْ تُصدِّقَنا ، حتَّى ولَوْ كُنَّا صَادقِينَ ..

وقَدَّمُوا الْقَميصَ لأبيهِمْ ، فَتأمَّلَ يَعْقُوبُ عليه السلام الْقَميصَ ، صَحيحٌ أَنَّهُ كانَ مُلَطَّخًا بالدِّماءِ ، لكنَّهُ كَانَ سَليمًا ، ولَمْ يَكُنْ بِهِ أىُّ قَطْعٍ أَوْ تَمزُّقٍ مِنْ أنيابِ الذِّئْبِ .. فعرَفَ يَعْقُوبُ أنَّ أبْناءَهُ يَكْذِبُونَ ؛ وأنَّ الذِّئْبَ لَمْ يأْكُلْ يُوسُفَ ؛ وأنَّهُمْ قَدِ احْتالُوا على إِخْفاءِ يُوسُف ..

ولِذلكَ خاطَبهم يَعْقُوبُ عليه السلام قائلاً :

ـ أَعْرِفُ أنَّ الذِّئْبَ لَمْ يأْكُلْ وَلَدى ، وأَعرِفُ أَنَّ أَنْفُسَكُمْ قدْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَمرًا ، فَصَبْرٌ جَميلٌ ، واللهُ وَحْدَهُ هو الْمُسْتَعَانُ على مَا تَصِفُون ..



اسْتعَانَ يَعْقُوبُ عليه السلام فى مِحْنَتِهِ باللهِ تعالَى ، وطلبَ مِنْهُ أنْ يُلْهِمَهُ الصَّبْرَ الْجَميلَ ، على ما دَبَّرهُ أبْنَاؤُهُ مِنْ كَيْدٍ لَهُ وليُوسُفَ ..

ونعُودُ إلى يُوسُفَ عليه السلام فَنراهُ وَحِيدًا داخِلَ الْبِئْرِ ، لكِنَّهُ لَيْس خَائفًا ، لأَنَّهُ يُدْرِكُ أَنَّ اللهَ مَعَهُ ، ولَنْ يُخْزِيهُ ، وقدْ أَوحَى إلَيْهِ أَنَّهُ لَنْ يُهْلِكَهُ ، بلْ سَيُنْجِيهِ ..

كانَ يُوسُفُ داخِلَ الْبِئْرِ ، عَارِيًا مِنْ قَميصِهِ ، وهو يَدْعُو ربَّهُ .. وقَلْبُ يَعْقوبَ النَّبىِّ معَهُ فى مِحْنَتِهِ ..

ولَمْ تَطُلْ وحْدَةُ يُوسُفَ عليه السلام داخِلَ الْبِئْرِ ..

فهَاهِى ذِى قافِلةٌ تِجاريَّةٌ تَقْطَعُ الصَّحْراءَ ..

الْقَافلةُ فى طريقها إلى مِصْرَ .. ورحْمةُ اللهِ تُدْرِكُ يُوسُفَ .. ورأى قادَةُ الْقَافِلةِ الْبِئْرَ ، فأصْدر قائِدُهم أمْرًا إلى الْقَافِلَةِ بالتَّوَقُّفِ لحِينِ التَّزوُّدِ بالْمَاءِ ؛ حتى يَشْرَبوا ويَسْقُوا دَوَابَّهُمْ ..

وتَقدَّمَ أَحَدُ رِجال الْقَافِلَةِ ، وهوَ الْمَسْئُولُ عنِ اسْتِخْراجِ الْماءِ .. فأمْسَكَ الرَّجُلُ بالدَّلْوِ وأَلْقَى بهِ فى الْبِئْرِ .. وأَحسَّ يُوسُفُ عليه السلام بالدَّلْوِ برَغْمِ ظَلامِ الْبِئْرِ الشَّدِيد ، فتعَلَّقَ بِهِ ..

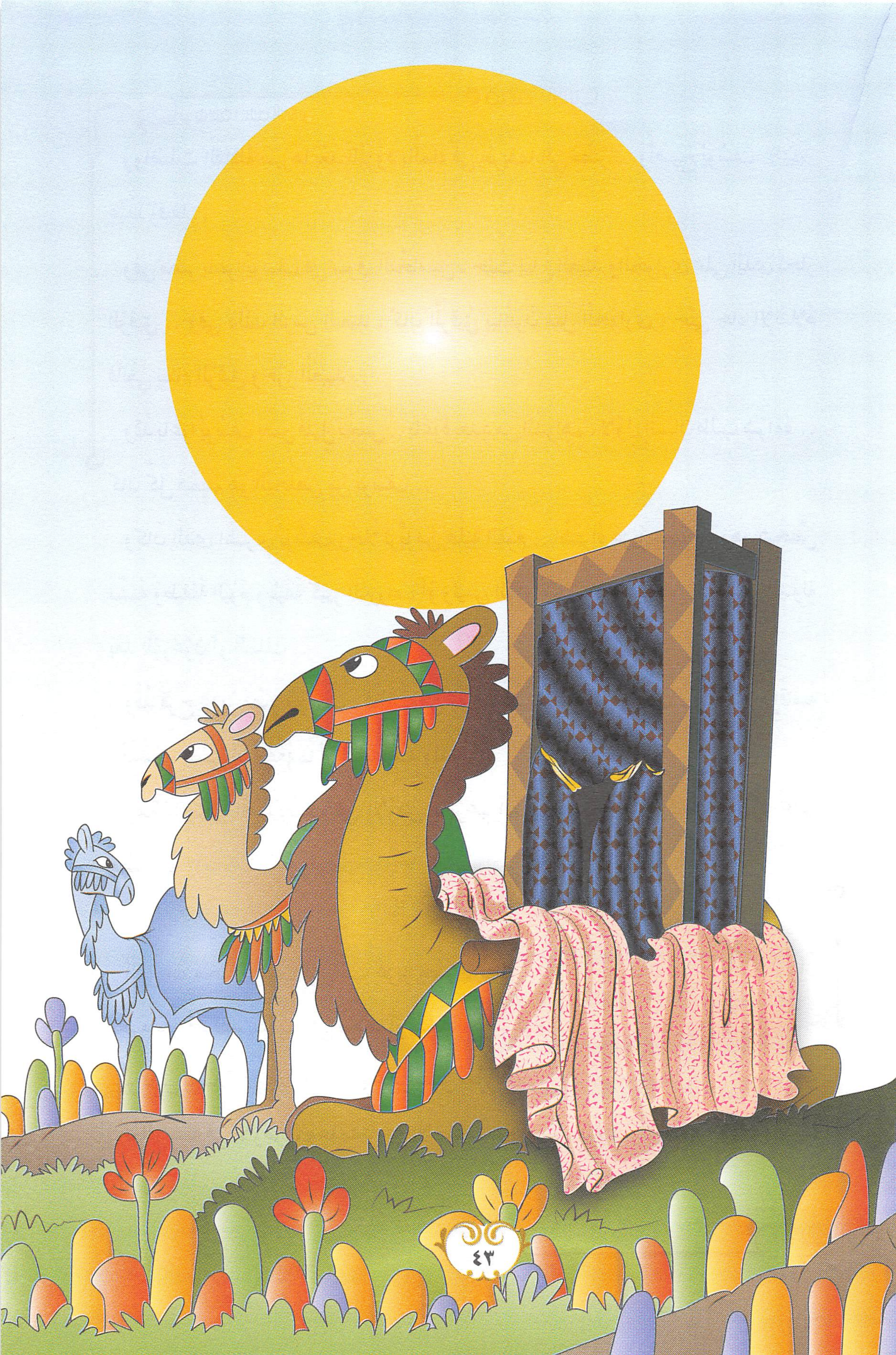
وفى أَعْلَى الْبِئْرِ ، سَحبَ الرَّجُلُ حَبْلَ الدَّلوِ ، وهوَ يَظُنُّهُ مُمْتَلِئاً بالْماءِ .. لكنَّهُ فُوجِئَ بَدَلَ الْماءِ ، بِغُلامٍ مُتعَلِّقٍ بالدَّلو ؛ فصَاحَ فرحاً :

ـ يا بُشْرَى .. هذا غُلامٌ ، وكُنْتُ أَظُنُّهُ ماءً ..

اسْتَبْشَرَ وَاردُ الْماءِ بيُوسُفَ ، حِينَ عَثَرَ علَيْهِ ، وقالَ لِشُرَكَائِهِ فى الْقَافِلَةِ :

ـ يجبُ أنْ نُخْفِىَ أَمْرَ هذا الْغُلامِ عَنْ بَقيَّةِ التُّجَارِ فى الْقَافِلَةِ ، حتَّى لا يَطْلُبُوا مُشارَكتَنا فيهِ ، ويَطْلُبُوا نَصِيبَهُمْ فى ثَمَنِهِ عِندَما نَبيعُهُ ..

فوافقَهُ شُرَكَاؤُهُ .. وهكذا أَخفَوْا أَمْرَ يُوسُفَ عَنْ بَقِيَّةِ التُّجَّارِ ، وأَسَرُّوهُ بضَاعَةً ، أَى أَخْفَوْهُ بَيْنَ بِضاعَتِهِمْ ..



وواصلَتِ الْقافِلَةُ سَيْرَها بَعْدَ التَزَوُّدِ بالْماءِ فى طَريقها إلىَ مِصرَ .. وأَصْبحَ يُوسُفُ عليه السلام عبْدًا رَقيقًا ..

وفى مِصرَ باعُوا يُوسُفَ فى سُوقِ النَّخَاسِينَ ، حيْثُ يُبَاعُ الْعَبِيدُ والْجَوارى على أيْدِى تُجارِ الرَّقِيقِ .. وفى ذَلكَ الزَّمَنِ الْبَعِيدِ ، كانَ الرَّقِيقُ يُبَاعُونَ مِثْلَ الْجَوارى ؛ حتَّى جاءَ الإسْلامُ فألْغى نِظامَ الرَّقِيق وحرَّرَ الْعَبيدَ ..

وقَدْ باعُوا يُوسُفَ بثَمَنٍ قَليلٍ بَخْسٍ .. باعُوهُ بعَدَدٍ مِنَ الدَّراهِمِ ، لأوَّلِ إنْسانٍ طلَبَ شِراءَهُ .. كانَ كُلُّ هَمِّهِمْ هوَ التَّخَلُّصَ مِنْ يُوسُف ..

وكانَ الَّذى اشْتَرَى يُوسُفَ رَجُلاً ثَرِيًّا مِنْ عِلْيَةِ الْقَوْمِ .. اشْتَراهُ عَزيزُ مِصرَ .. وهو شَخْصٌ تُشْبهُ وَظيفتُهُ الْيَوْمَ وَظِيفَةَ كَبيرِ الْوُزَراءِ ، أوْ رئيس الْوُزَراءِ .. وهو الْشَّخْصُ الثَّانى فى الدَّوْلَةِ بَعْدَ الْفِرعَوْنِ أوِ الْمَلِكِ ..

وقَدْ فَرِحَ عَزيزُ مِصرَ بيُوسُفَ ، فطَلبَ مِنْ زَوْجَتِه أنْ تُحْسِنَ إلى يُوسُفَ ، وأنْ تُكرِمَ إقَامَتَهُ عِنْدَهُمْ ، عسَى أنْ ينْفعَهُما أوْ يَتَّخِذا مِنْهُ وَلَدًا ..

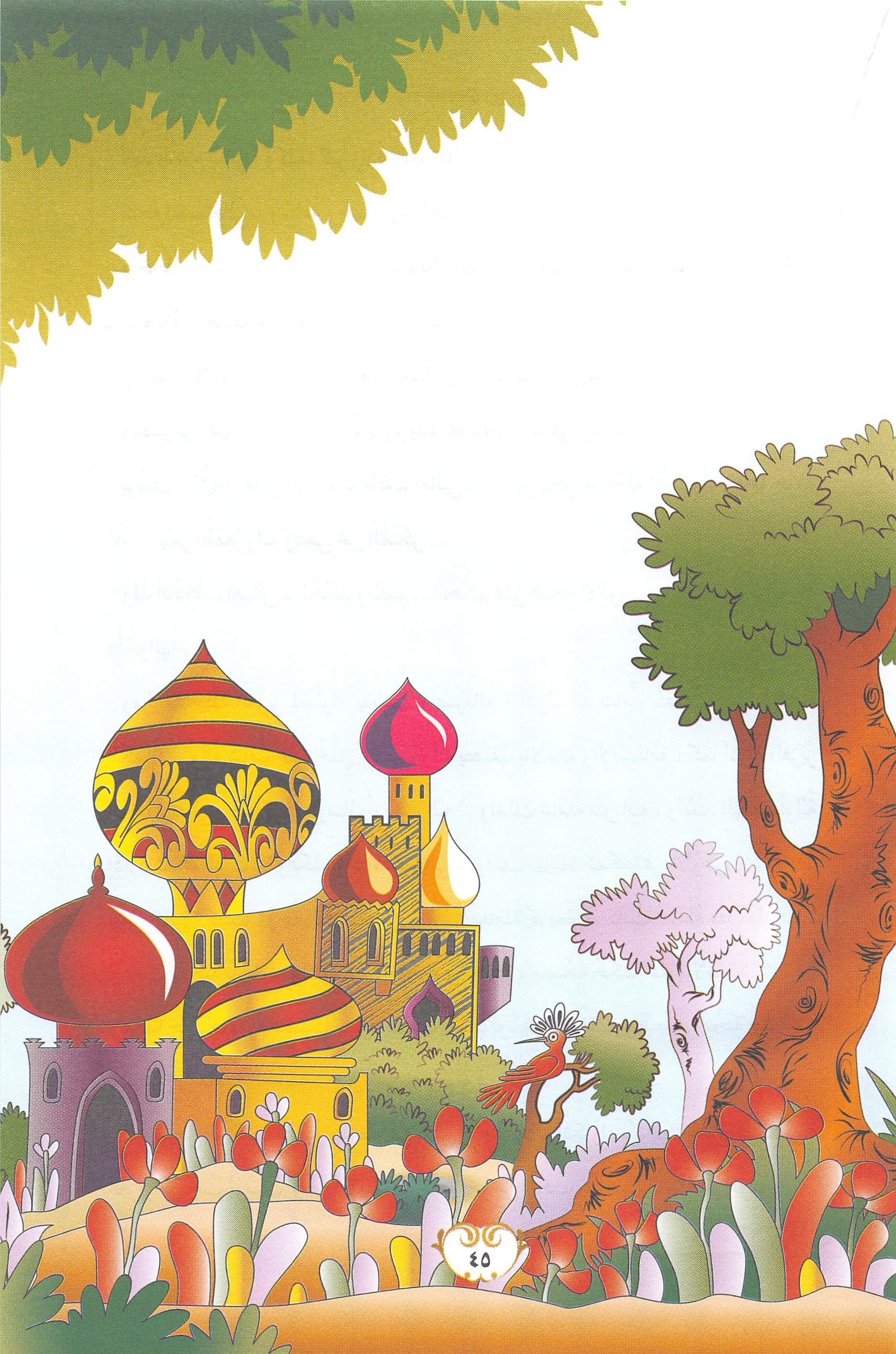
وهكذا مَكَّنَ اللهُ ليوسُفَ فِى الأَرْضِ ، برَغْمِ أنَّهُ قَدْ أَصْبحَ عَبْدًا رَقيقًا فى بَيْتِ عَزيزِ مِصْرَ ..

المحنة

أَلْقَى اللهُ مَحبَّةَ يوسُفَ فى قلْبِ عَزيزِ مِصْرَ ، فَطلبَ مِنْ زوْجَتِهِ أَنْ تُحْسِنَ مُعامَلَتَهُ ، وأنْ تُكْرِمَ مَثْوَاهُ ، فَقَدْ ينْفَعُهُما فى يومٍ ما أَوْ يَتَّخِذانِه وَلدًا لهُما ..

وعَاشَ يوسفُ عليه السلام فى مَنْزِلِ عزيزِ مصر مُعَزَّزاً مُكرَّماً ، برَغْمِ أنَّه عَبْدٌ رَقيقٌ .. ومكَّنَ اللهُ ـ تعالَى ـ لهُ فى الأرْضِ ، وعلَّمَهُ تأْويلَ الأحادِيثِ ، وتفْسيرَ الرُّؤَى والأَحْلامِ ، وفَكَّ رمُوزِها الغامِضَةِ ..





أَخذَ الْغُلامُ يَكْبَرُ ، وكُلّما كَبِرَ زادَهُ اللهُ - تعالَى - جَمالاً ..

مَنَحهُ اللهُ - تعالَى - وَسَامَةً وجَمالًا ومَلاحَةً فى وَجْهِهِ ..

وأَحَاطَهُ اللهُ - تعالَى - بالرِّعايَةِ ، وتولّاهُ بالْعِنَايَةِ ؛ لأنَّهُ أَعْلَمُ بصَلاحِهِ ، ونَقَاءِ سَريرَتِهِ ، ولأنَّهُ - سُبْحانَهُ - يَصْنَعُهُ على عَيْنِه ؛ لِيَكونَ نَبيًّا فى الْمُسْتَقْبَل ..

وتمضى الأَيَّامُ بيُوسُفَ عليه السلام وهو يَعْملُ فى بَيْتِ سَيِّدِهِ ، ويتعَلَّمُ ..

ويَصيرُ يُوسُفُ عليه السلام شابًّا قَويًّا ، ويَزيدُهُ اللهُ - تعالَى - تُقًى ووَرَعًا ..

يوسُفُ عليه السلام على صِلَةٍ طيِّبَةٍ باللهِ - تعالَى - .. فهو يُحِلّ ما أَحَلَّهُ الله ، ويُحَرِّمُ ما حَرَّمَهُ الله .. يأْمُرُ بالْمَعْرُوفِ وينْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ ..

وقدْ آتاهُ اللهُ - تعـالى - الْحُكْمَ والْعِلْمَ .. الْحُكْمَ على صِحَّةِ الأُمُور .. والْعِلْمَ بشُئُونِ الْحياةِ وأَحْوالِها ..

ومِنْ مُلاحَظَةِ الْعَزيزِ لسُلُوكِ يُوسُفَ وتَصَرُّفاته ، أَدْركَ أَنَّهُ شابٌّ يتَّصِفُ بكُلِّ صِفاتِ الْكَمالِ ، وأَنَّهُ شابٌّ على خُلُقٍ عَظيمٍ ، وأنَّه يتَّصِفُ بالأَمانَةِ والاِسْتِقَامَةِ ، كما أَدْرَكَ الْعَزيزُ أنَّ اللهَ - تعالى - قَدْ أكْرَمَهُ بإرْسالِ يُوسُف إلَيْه .. ولذلكَ عامَلَهُ مِثْلَ ابْنِهِ ، وأَسْنَدَ إلَيْهِ مَسْئُوليَّةَ إِدَارَةِ شُئُونِ الْبَيْت .. وهكذَا زادَ اللهُ - تعالى - يوسُفَ عليه السلام تَمْكِينًا فى الأَرْضِ ..

ومِنْ جَانِبِهَا كانَتْ زَوْجَةُ الْعَزيزِ تُعامِلُ يُوسفَ مُعَامَلَةً كَريمَةً .. كانَتْ تُعامِلُهُ مِثْلَ وَلَدِها .. وكانَتْ مُعْجَبَةً بأَخْلاقِهِ واسْتِقَامَتِهِ ، وعِلْمِهِ وحِكْمَتِهِ ، وصِحَّةِ حُكْمِهِ علَى الأُمورِ ..

وهكذا حتَّى جاءَ يَوْمٌ عصيبٌ .. يَوْمٌ عَصَفَ بِكِيَانِ يُوسُفَ عَصْفًا ، ووَضَعَهُ فى مِحْنَةٍ جَديدةٍ ، تُضافُ إلى مِحْنَتِهِ السَّابِقَةِ ، حينَ أَلْقَى به إِخْوَتُهُ فى الْبِئْرِ ..

لقدْ تدخَّلَ الشَّيْطانُ اللعينُ ، لِيَضَعَ فى رأْسِ زَوْجَةِ الْعَزيزِ أَفْكارًا سَوْدَاءَ .. تَحوَّلَ قَلْبُ امْرَأَةِ الْعَزيزِ مِنْ حُبِّ يُوسُفَ كَحُبِّها لابْنِهَا إِلَى نوعٍ آخرَ مِنَ الْحُبِّ .. حُبِّ الْمَرْأَةِ لِلرَّجُلِ ..

اكتَشَفَتِ امْرَأَةُ الْعَزيزِ أَنَّها تُحِبُّ يوسُفَ ، مِثْلَمَا تُحِبُّ الْمَرْأَةُ الرَّجُلَ .. لكنَّ يُوسُفَ غَافِلٌ عَنْ شُعُورِها نَحْوَهُ .. يوسُفُ نَبِيٌّ يَحْتَرِمُ سَيِّدَهُ وَزَوْجَةَ سَيِّدِه ، ولاَ يُمْكِنُ أبَدًا أَنْ يُفكِّرَ فيمَا فكَّرَتْ فِيه زَوْجَةُ الْعَزِيزِ ..

وبدأَتْ زَوْجَةُ الْعَزِيزِ تُلْفِتُ نَظَرَ يُوسُفَ إلى جَمَالِها بِحرَكَاتِها وتَصرُّفَاتِها .. لكنَّ يوسُفَ كانَ غَافِلاً عنْ ذَلِكَ كُلِّه .. حتَّى جاءَ الْيَوْمُ الْمَشْئُومُ ..

كانَ الْعَزيزُ خارِجَ الْمَنْزِلِ .. وكان يُوسُفُ يُؤَدِّى عَمَلَهُ دَاخلَ الْمَنْزِلِ بِمُنْتَهى الصِّدْقِ والإِخْلاصِ ..

وانْتَهزَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ فُرْصَةَ غِيابِ زَوْجِها عَنِ الْمَنْزِلِ ، وخُلُوِّه عَلَيْهِمَا ، هى ويُوسُفَ وحْدَهُمَا ..

وارْتَدَتْ أجْمَلَ ملابِسها .. وأَغْلَقَتْ أَبْوابَ الْمَنْزِلِ ونَوافِذَهُ بإِحْكام .. ثمَّ توَجَّهتْ إلى يُوسُف ، ورَاحَتْ تتحدَّثُ إِلَيْهِ .. أفْهَمَتْهُ أنَّها تُحِبُّهُ ، مِثْلَمَا تُحِبُّ الْمَرْأَةُ الرَّجُلَ ، وليْسَ مِثْلَمَا يتَوَهَّمُ هوَ أَنَّها تُحِبُّهُ مِثْلَ أُمِّه ..

وَدُهِشَ يُوسُفُ مِنْ هذا التَّحوُّلِ فى سُلُوكِ سَيِّدَتِه ..

وربَّما نَهَرهَا ، وقالَ لها : إنَّ هذا لا يَصِحُّ .. إنَّهُ يُحِبُّ سَيِّدَهُ ويَحْترِمُهُ فى غَيْبَتِهِ .. سَيِّدَهُ الَّذى أَحْسَنَ إِلَيْه ورَبَّاهُ صَغِيرًا .. فكَيْفَ يَخُونُهُ ، ويُنْصِتُ إِلَى هذا الْكَلامِ مِنْ زَوْجَتِهِ ..

ولكنَّ الْمَرْأَةَ لَمْ تَعْبَأْ بِشَىْءٍ مِنْ ذلِكَ ، واقْتَرَبَتْ مِنْ يوسُفَ أكْثَرَ .. ثمَّ رَاحَتْ تقُولُ لَهُ :

ـ ما أَجْمَلَ شَعْرَكَ يا يُوسُفُ !

فَقالَ لها يوسُفُ عَلَيْهِ السَّلَامُ :

ـ إنَّ شَعْرِى هوَ أَوَّلُ شَىءٍ يَسْقُطُ مِنْ جَسَدِى بعْدَ الْمَوْتِ ..



فقالَتِ الْمَرْأَةُ :

ـ ما أَرْوَعَ لَوْنَ عَيْنَيْكَ وما أَرْوَعَ صفَاءَهُمَا ..

فقالَ يوسُفُ عليه السلام :

ـ لقدْ خلقهُمَا ربِّى ؛ لأَنْظُرَ بهمَا إلى الْحلالِ .

واقْتربَتِ الْمَرْأَةُ مِنْهُ أَكْثرَ ، لكنَّ يُوسُف عليه السلام لَمْ يَرْفَعْ بَصرَهُ إِلَيْها ، فَقالتْ لَهُ :

ـ مالى أَرَاكَ تقِفُ جامِدًا هكذا ، وأَنا أَقُولُ لَك إِنَّنِى أُحِبُّكَ ؟!

فقالَ لها يوسُفُ عليه السلام :

ـ إِنَّنِى أَخْشَى رَبِّى ، وأُحِبُّهُ أَكْثرَ مِنْ أَىِّ شَىءٍ فى الدُّنْيا ، ولِذلك فلا يمْكنُ أَنْ أَعْصِيَهُ أَبَدًا ..

فَقالتْ لهُ :

ـ إِنَّنى أُريدُكَ لِنَفْسِى ..

فاسْتَغْفَرَ يُوسُفُ رَبَّهُ ، وقالَ لهَا :

ـ كَيْفَ أَعْصِى رَبِّى وقدْ أَكْرَمَنى بهذَا الْبَيْتِ ؟

وكَيْفَ أَخُونُ سَيِّدى ، وهوَ الذى أَحْسَنَ إِلَىَّ ، وأَكْرمَ مَثْوَاىَ ؟ إِنَّ هذا لَنْ يَكُونَ ..

وجَرَى يوسُفُ عليه السلام مُبْتَعِدًا عَنِ الْمَرْأَةِ ، وقَاصِدًا بابَ الْبَيْتِ لِيَفْتَحهُ ويَخْرُجَ ، حتَّى لا يَفْعلَ ما تَطْلُبُهُ مِنْهُ امْرَأَةُ الْعَزيزِ مِنْ عِصْيانِ اللهِ وخِيانَةِ سَيِّدِه ..

وتضَايَقَتْ زَوْجَةُ الْعَزيزِ مِنْ إِهْمالِ يُوسُفَ لهَا ، وانْصِرافِهِ عَنْها ، فجرَتْ خَلْفَهُ ، وأَمْسَكَتْ بِقَمِيصِهِ مِنَ الخَلْفِ لِتَمْنَعَهُ مِنَ الْخُرُوجِ ، فَقَاوَمَهَا يوسُفُ عليه السلام وتَمزَّقَ قَميصُهُ مِنَ الْخلفِ فى يَدِهَا ..

وفِى هذهِ اللَّحْظَةِ وقعَتْ مُفَاجَأَةٌ مُذْهِلَةٌ .. ظَهرَ الْعَزيزُ علَى الْبَابِ ، ومعَهُ ابْنُ عَمِّ الْمَرْأَةِ ..



فسارعَتْ زوْجَةُ الْعَزيزِ شَاكِيَةً لهُ أَنَّ خَادِمَها يُوسُفَ قَدْ أرادَ بها سُوءاً فى غَيْبَتِهِ ، وأنَّهُ لابُدَّ أَنْ يُوقِعَ علَيْهِ الْعِقابَ بِإِلْقائِهِ فى السِّجْنِ ، أَوْ تَعْذِيبِهِ عَذابًا شَدِيدًا على جُرْأَتِهِ وَوَقاحَتِهِ ..

اتَّهمَتِ الْمَرْأَةُ يُوسُفَ عَليَهِ السَّلامُ ظُلْمًا بِتُهْمَةٍ هو بَرِيءٌ مِنْها ، وكانَ يجبُ أَنْ تَنالَ هِى عِقابًا علَيْها ..

وأَمامَ هذا الْهُجومِ الظَّالِمِ مِنَ الْمَرْأَةِ علَيْهِ ، اضْطُرَّ يوسُفُ عَليَهِ السَّلامُ لأَنْ يَقُولَ الْحَقِيقَةَ ، لِيُبَرِّئَ نفْسَه مِمَّا اتَّهمَتْهُ به ، فقالَ : إِنَّها هِىَ الَّتى رَاوَدَتْنِى عَنْ نفْسِى ..

وأَمامَ هذهِ التُّهْمَةِ تكلَّمَ ابْنُ عَمِّ الْمَرْأَةِ لِيَحْكُمَ فى الْقَضِيَّةِ بالْعَدْلِ ، فقالَ :

ـ إِنَّ دَلِيلَ الْبَراءَةِ أَوْ الاتِّهامِ لِيُوسُفَ يَكْمُنُ فى قَمِيصِهِ .. لِنَفْحَصِ الْقَمِيصَ ونَرَ ، فإِنْ كانَ قَدْ تمزَّقَ مِنَ الأَمَامِ فإِنَّ ابْنَةَ عَمِّى صَادِقَةٌ فى ادِّعَائِها ، ويوسُفُ مُتَّهَمٌ ، لأَنَّ هذا يُثْبِتُ أَنَّه حاوَلَ الاعْتِداءَ علَيْها ، وهى حاوَلَتِ الدِّفاعَ عَنْ نَفْسِها ..

فَقالَ العزيزُ :

ـ وإِنْ كانَ قَمِيصُ يُوسُفَ قَدْ تمزَّقَ مِنَ الْخَلْفِ ؟!

فَقالَ ابْنُ عَمِّها :

ـ فى هذهِ الْحالَةِ يَكُونُ يوسُفُ صَادِقًا ، وتَكُونُ ابنَةُ عَمِّى كاذِبَةً .. فقدْ حاوَلَ أَنْ يَهْرُبَ مِنْها ، وحاوَلَتْ هى مُطارَدَتَهُ وإِعادَتَهُ ، فمزَّقَتْ قميصَهُ مِنَ الْخَلْفِ ..

وتمَّ فَحْصُ الْقَمِيصِ .. وثَبَتَتْ براءَةُ يُوسُفَ عَليَهِ السَّلامُ مِنَ الاتِّهامِ الْمُوَجَّهِ إِلَيْه .. فقالَ لها الْعَزيزُ :

﴿ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴾ .

ثم طَلَبَ مِنْ يُوسُفَ أَنْ يَنْسَى هذا الأَمْرَ تمامًا ، ولا يتحدَّثَ به معَ أَحَدٍ ، داخلَ الْبَيْتِ أَوْ خارِجَهُ .. وطَلَبَ مِنْ زَوْجَتِهِ أَنْ تَسْتَغفِرَ مِنْ ذَنْبِها ..



ولَكنَّ الأمْرَ لَمْ يَنْتَهِ عنْدَ هذا الْحَدِّ .. لَقَدِ انْتَشرَ خَبَرُ ما حَدَثَ فى الْمَدِينَةِ ، وتَنَاقَلَهُ النَّاسُ فى أَحادِيثِهِمْ وجَلَسَاتِهِمْ ، حتَّى وصَلَ الْحَدِيثُ إِلى امْرَأةِ الْعَزِيزِ ، وعَرَفَتْ أنَّ النِّساءَ فى الْمَدِينَةِ يتحدَّثْنَ هَمْسًا وَعَلَنًا عمَّا حدَث بَيْنَها ، وبَيْنَ خَادِمِها يوسُفَ .. وعرفَتْ أنَّهُنَّ يَلُمْنَها ويتَّهِمْنَها بالضَّلالِ ، فتضايقتْ زَوْجَةُ الْعَزِيزِ مِنْ ذلك الاتِّهَام الْمُوَجَّهِ إِلَيْها ، وقَرَّرتْ أَمْرًا ..

وجَّهتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الدَّعْوَةَ إِلى كُلِّ نِساءِ الطَّبَقَةِ الرَّاقِيَةِ ، اللائى تحدَّثْنَ عَنْها ، واتَّهَمْنَها بالضَّلالِ لأنَّها تُحِبُّ خادِمَهَا يُوسُفَ .. وأَمَرَتْ بإعْدادِ حَفْلٍ كَبيرٍ فى مَنْزِلِهَا أوْ قَصْرِها ، بِحَيْثُ يَقْتَصِرُ هَذا الْحَفْلُ عَلى النِّسَاءِ فَقَطْ ..

وأَمَرَتِ الْخَدَمَ بإِعْدادِ مَجْلِسٍ يَلِيقُ بِنِساءِ الطَّبَقَةِ الرَّاقِيَةِ ..

وكانَ مِنْ بَيْنِ الطَّعامِ الَّذى قُدِّمَ فى هَذا الْحَفْلِ فاكِهَةٌ لابُدَّ أَنْ تُقَشَّرَ أَوْ تُقَطَّعَ بِالسَّكاكِين ..

ولِذلك أَمَرَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ بأَنْ تُوضَعَ لِكُلِّ سَيِّدةٍ سِكِّينًا حادَّةً بِجوارِ طَبَقِ فَاكِهَتِها ..

وجلَسَتِ النِّسْوَةُ لِلطَّعَامِ ، وبَعْدَ الطَّعَامِ ، كانَ عليْهِنَّ أَنْ يأْكُلْنَ الْفاكِهَةَ ، فَأَمْسَكَتْ كُلُّ واحِدةٍ بالسِّكِّين تُقَشِّرُ فاكِهتَهَا أَوْ تُقَطِّعُها ، وفى هذه اللَّحْظَةِ نادَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ يُوسُفَ ، فَلَمَّا حضَرَ ورَأَتْهُ النسْوَةُ ، شَهِقَتْ جميعُ الْحاضِراتِ ، لِهذَا الْوَجْهِ الْمَلائِكِيِّ ، الَّذى لَمْ يُشاهِدْنَ مِثْلَهُ بَيْنَ الرِّجالِ قَطُّ ..

وبِدُونِ أَنْ يَشْعُرنَ قَطَّعَتِ النِّساءُ أَيْدِيهُنَّ ، بَدَلاً مِنْ تَقْطِيعِ الْفاكِهَةِ ..وقُلْنَ جميعًا :

﴿ حَاشَ للهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾ .

فقالَتِ امْرَأَةُ الْعَزيز :

﴿ ... فَذَلِكُنَّ الَّذى لُمْتُنَّنى فيهِ ولَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ ولَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ ولَيَكُونًا مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴾ .

اعْترفَتِ امْرَأَةُ الْعَزيزِ ببراءَةِ يُوسُفَ ، وبأنَّها هِيَ الْمُذْنِبَةُ لأنَّها هِيَ الَّتي راوَدَتْهُ عَنْ نَفْسِه ، لَكِنَّهُ اسْتَعْصَمَ وخَافَ اللهَ ـ تعالَى ـ وأنَّهُ إِذا لَمْ يَفْعَلْ ما تطْلُبُهُ مِنْهُ ، فَسَوْفَ تَجْعَلُهُ يُلْقَى في السِّجْنِ صَاغِرًا ذَلِيلاً ..

فقالَ يُوسُفُ عليه السلام مُخاطِبًا ربَّهُ ـ تعالَى :

ـ رَبِّ ، إِنَّ السِّجْنَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ تَنْفِيذِ ما تَطْلُبُهُ سَيِّدَتِي .. رَب اصْرِفْ عَنِّي كَيْدَ هَؤلاءِ النِّسْوَةِ ، حتَّى لاَ أَقَعَ فِي الْخَطَإِ والضَّلالِ وأَكُونَ مِنَ الْعَاصِينَ ..

واسْتَجابَ اللهُ ـ تعالَى ـ دُعاءَ نَبيِّه يوسُفَ عليه السلام فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَ النِّساءِ .. وجعَلَ اللهُ ـ تعالى ـ الْيَأْسَ في قُلُوبِ هَؤُلاءِ النِّسْوَةِ مِنْ نَاحِيَةِ يُوسُفَ ..

وَلكِنَّ الْعَزيزَ والْمُحيطينَ بهِ مِنْ رِجَالِ الْحُكْمِ فِي مِصْرَ ، اسْتَقَرَّ رَأْيُهُمْ على وَضْعِ يُوسُفَ في السِّجْنِ فتْرَةً مِنَ الْوَقْتِ ، برغْمِ بَرَاءَتِهِ ، وذلِكَ حتَّى يَنْسَى النَّاسُ ما حَدَثَ مِنَ امْرَأَةِ الْعَزيزِ ..

وهكَذا أُدْخِلَ يوسُفُ السِّجْنَ ، وهُوَ بَرِيءٌ مِنْ أيَّةِ تُهْمَةٍ ..

السجن

دَخَلَ نَبِيُّ اللهِ يوسُفُ عليه السلام السِّجْنَ فِي تُهْمَةٍ هو بَرِيءٌ مِنْها .. وفي السِّجْنِ انْتَهَزَ يوسُفُ عليه السلام الْفُرْصَةَ .. فُرْصَةَ الْهُدُوءِ والسَّكِينَةِ ، فتَفَرَّغَ لِعبادَةِ اللهِ ـ تعالَى ..

ووجَدَ وقْتًا لِلتَّأمُّلِ في كَوْنِ اللهِ ومَلكُوتِه ..

ولَمْ يُضِعْ يوسُفُ الْفُرْصَةَ ، وهَا هُوَ ذا يَقومُ بالدَّعْوَةِ إلى اللهِ ، فدعَا الْمَسَاجِينَ إِلَى عِبادَةِ اللهِ ..

وفي صَبْرٍ وحِكْمَةٍ وتَعَقُّلٍ راحَ يوسُفُ عليه السلام يُحدِّثُ زُمَلاءَهُ مِنَ الْمَساجِينِ عَنِ اللهِ بالإقْناعِ الْعَقْلِيِّ ..

حدَّثهُم عَنْ عَظَمَةِ اللهِ ـ تعالى ـ وقُدْرَتِه ورَحْمَتِه بِعبادِه ومَخْلُوقاتِه ..

وكانَ يسْألُهُمْ قَائِلاً :

ـ أيُّهما أفْضَلُ : أنْ نَعْبُدَ الله ، رَبَّ هذا الْكَوْنِ ، الَّذى خلقَنا ورزَقَنا ، ومَنَحنا كُلَّ أسْبابِ الْحياةِ ، أمْ أنْ نَعْبُدَ مِنْ دُونِهِ أرْبابًا مُتفرِّقِينَ ، وآلِهَةً مِنْ تَماثِيلَ لا تَنْفَعُ ولا تَضُرُّ ، ولاَ تُغْنِى عنَّا مِنْ عَذابِ اللهِ شَيْئًا ؟!

وكانَ مِنْ بيْنِ الْمَساجِينِ ، الَّذينَ دَخلُوا السِّجْنَ مع يوسُفَ اثْنَانِ مِنَ الْفِتْيانِ ..

كانَ أحَدُ الْفَتَيَيْنِ قبْلَ دُخولِهِ السِّجْنَ يَعْمَلُ خبَّازًا فى قصْرِ مَلِكِ مِصْرَ ..

وكانَ الآخَرُ يَعْمَلُ سَاقِيًا لِلْمَلِكِ ، فكانَ يَقُومُ بتَقْدِيمِ كُئُوسِ الشَّرابِ لِلْمَلِكِ ..

وذاتَ يَوْمٍ فى السِّجْنِ رَأى كُلٌّ مِنَ السَّاقِى والْخَبَّازِ حُلْمًا فى مَنَامِهِ .. وكانَ حُلْمُ كُلٍّ مِنْهُمَا يَخْتلِفُ عَنْ حُلْمِ الآخَرِ .. فمَاذَا رأى كُلٌّ مِنْهُمَا ؟!

شاهَدَ الْخَبَّازُ فى حُلْمه أنَّه يَحْمِلُ فوْقَ رَأْسِهِ خُبْزًا ..

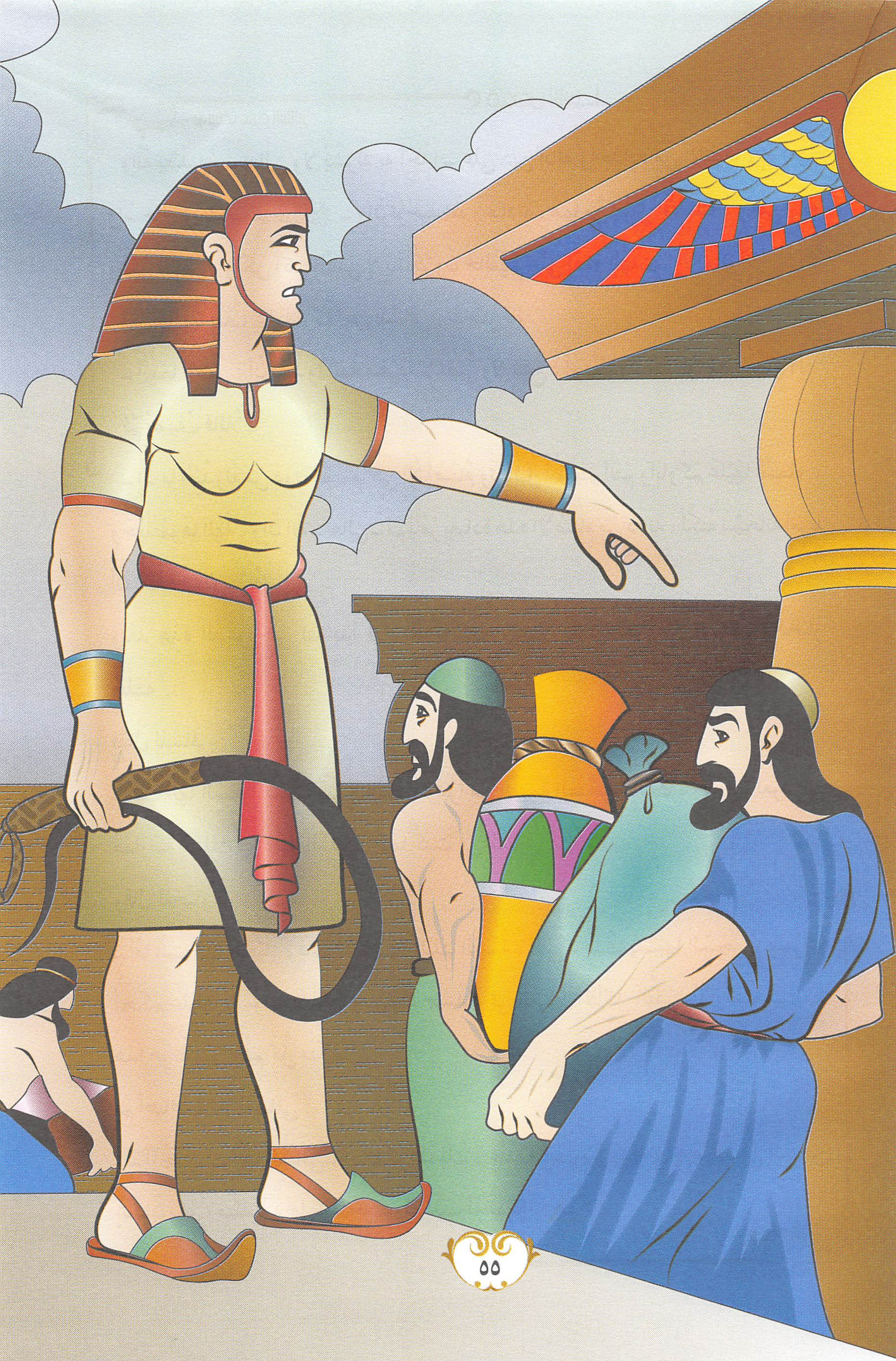
وشاهَدَ مَجْمُوعَةً مِنَ الطُّيُورِ تُحَومُ فوْقَ رَأسِهِ وتَخْتَطِفُ أرْغِفَةَ الْخُبْزِ وتأْكُلُهَا ..

وشاهَدَ السَّاقِى نَفْسَهُ وهوَ يقِفُ أمامَ الْمَلِكِ ويَقُومُ بتَقْدِيم كأْسِ الشَّرابِ لهُ ..

وكانَ الْخَبَّازُ والسَّاقِى قَدْ سَمِعَا عَنْ يُوسُفَ عليه السلام فى السِّجْنِ ، وَعرَفا أنَّهُ يسْتَطِيعُ تَفْسِيرَ الأحْلامِ ، وفَكَّ رُمُوزِها الْغَرِيبَةِ ، ومَعْرِفَةَ ما تُشيرُ إلَيْهِ هذهِ الرُّمُوزُ .. ولذلك ذهبَا إلى يُوسُفَ ، وقَصَّ كُلٌّ مِنْهُمَا علَيْهِ حُلْمَهُ ، وطَلبَ مِنْهُ تَفْسِيرَه ..

فَماذَا قالَ لَهُما يوسُفُ عليه السلام ؟!

انْتهَزَ يوسُفُ عليه السلام الْفُرْصَةَ ، وقبْلَ أنْ يَبْدَأَ بتفْسِيرِ حُلْمِ كلٍّ مِنَ السَّاقِى والْخَبَّازِ ، راحَ يَدْعُو كُلًّا مِنْهُما إلى الإيمانِ باللهِ ـ تعالَى ـ وقال لَهُمَا : إنَّهُ قدْ ترَكَ دِينَ هَؤُلاءِ الْقَوْمِ الْكافرينَ خارِجَ السِّجْنِ ، والَّذينَ لا يُؤْمِنونَ باللهِ ولا بالْيَوْمِ الآخِرِ ..



وإنَّهُ يعبُدُ اللهَ ـ تعالَى ولا يُشْرِكُ به أحَدًا ـ على دِينِ آبائِه وأجْدادِه مِنَ الأنْبِياءِ ، إبْراهيمَ وإسْحاقَ ويَعْقُوبَ ـ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ـ وإنَّ تَوْحيدَ اللهِ وعبادَتَهُ ، هُما مِنْ فَضْلِ اللهِ علَيْه ، وعلَى آبائِهِ وعلَى النَّاسِ ، ولكنَّ أكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ خالِقَهُمْ على نِعْمَةِ الْهُدَى والإيمانِ ..

ثمَّ يَسْأَلُ يوسُفُ عَلَيْهِ السَّلَامُ كُلًّا مِنَ السَّاقِي والْخَبَّازِ قائِلاً :

ـ أيُّهما أفْضَلُ : أنْ تَعْبُدُوا آلهَةً مُتفرِّقَةً لا تَضُرُّ ولا تَنْفَعُ ، أمْ تَعْبُدونَ اللهَ الْوَاحِدَ الْقَهَّارَ ؟!

ثمَّ يُضيفُ قائِلاً :

ـ إنَّ ما تَعْبُدُونَهُ مِنْ دُونِ اللهِ ، ما هِيَ إلاَّ أصْنامٌ وتَماثِيلُ أطْلَقْتُمْ أنْتُمْ وآباؤُكُمْ علَيْهَا أسْماء ، وجَعَلْتُمُوهَا آلِهَةً ، وإنَّ اللهَ ـ تعالى ـ لَمْ يأمُرْ بِعِبادَةِ هذه الأصْنامِ مِنْ دُونِهِ ، لكنهُ سُبْحانه أمَرنَا أنْ نَعْبُدَهُ دُونَ سِواهُ ..

وبَعْدَ هذه الدَّعْوَةِ إلَى اللهِ بَدأ نَبِيُّ اللهِ يُوسُفُ عَلَيْهِ السَّلَامُ يُفَسِّرُ لِكُلٍّ مِنَ السَّاقِي والْخَبَّازِ حُلْمَهُ ..

فقالَ لِلسَّاقِي :

ـ أنْتَ أيُّها السَّاقِي سَوْفَ يُفْرَجُ عَنْكَ ، وتُبَرَّأُ مِنَ التُّهَمَةِ الْمَنْسُوبَةِ إلَيْكَ ، وسَوْفَ تعُودُ إلى مُمارَسَةِ عَملِكَ فى قَصْرِ الْملِكِ ، كَما كُنْتَ فى السَّابِقِ ..

وقالَ للْخبَّازِ :

ـ أمَّا أنْتَ أيُّها الخبَّازُ ، فسَوْفَ تَثْبُتُ علَيْكَ التُّهْمَةُ ، التى دخَلتَ بسَبَبِهَا السِّجْنَ ، وسَوْفَ يُحْكَمُ علَيْكَ بالْمَوْتِ صَلْبًا ، وسَيُتْرَكُ جَسَدُكَ فى الْعَراءِ ؛ لتأكُلَ الطَّيْرُ مِنْهُ وأنتَ مَيِّتٌ ..

هذا هوَ تفْسيرُ حُلْمِ كُلٍّ مِنْكُما ..

ثمَّ أضافَ قائلاً للسَّاقى :

ـ أرْجُو منْكَ أيُّها السَّاقى ، أنْ تذْكُرَ لِلْمَلِكِ ، عِنْدَمَا تَقِفُ بَيْنَ يَدَيْهِ ، أنَّهُ يُوجَدُ فى السِّجْنِ إنْسانٌ بَرِيءٌ مَظْلُومٌ دخلَ السِّجْنَ دُونَ ذَنْبٍ أوْ تُهْمَةٍ .. هوَ أنَا ..



فوعَدَهُ السَّاقِى بأَنَّه سَوْف يَذْكُرُ لِلْمَلِك قِصَّتَهُ ..

ومضَتْ أَيَّامٌ ، فتَحقَّقتْ نُبوءَةُ يُوسُفَ عليه السلام التى تنبَّأ بها لِكُلٍّ مِنَ السَّاقِى والْخبَّاز ..

فخرَجَ السَّاقى مِنَ السِّجْنِ ، وعَادَ إلى مُمَارَسَةِ عَمَلِهِ فى الْقَصْرِ ، وهوَ تَقْدِيمُ الشَّرابِ إلى الْمَلِكِ ..

أمَّا الْخبَّازُ ، فَقدْ صُلِبَ ، وتُرِكَ جَسَدُهُ فى الْعَرَاءِ ، لِتأْكُلَ الطَّيْرُ مِنْهُ ..

ونَسِىَ السَّاقِى ما طَلَبَهُ مِنْهُ يوسُفُ عليه السلام .. أَنْساهُ الشَّيْطَانُ أَنْ يَذْكُرَ قِصَّتَهُ لِلْمَلِكِ ..

فاسْتَمَرَّ يُوسُفُ عليه السلام فى السِّجْنِ بِضْعَ سَنواتٍ ، بِرَغْمِ أَنَّهُ دخَلَ السِّجْنَ مَظْلُومًا ..

وذاتَ لَيْلَةٍ كانَ مَلِكُ مِصرَ نائمًا فى فِرَاشِهِ ، فرَأَى حُلْمًا غرِيبًا .. حُلْمًا أَفْزَعَهُ ، فاسْتَيْقَظَ مِنْ نَوْمِهِ خائِفًا ، والْهَمُّ يَمْلأُ وجْهَهُ بِسَبَبِ هذَا الْحُلْم ..

واسْتَدْعَى الْمَلِكُ الْكَهَنَةَ والْوُزَرَاءَ ورِجَالَ الْقَصْرِ والْعَرَّافِينَ وقَصَّ عليْهِمُ الْحُلْمَ الذى أَفْزَعَهُ ..

قالَ الْمَلِكُ :

ـ لقَدْ رَأَيْتُ فى مَنَامِى شَيْئًا عَجِيبًا .. رأَيْتُ سَبْعَ بَقَراتٍ سِمَانٍ يأْكُلُهُنَّ سَبْعُ بَقَراتٍ هَزِيلاتٍ .. رأَيْتُ الْبَقراتِ السِّمَانَ ، وهى تَخْتَفِى فى جَوْفِ الْبَقَراتِ الْهَزِيلاتِ ..

ورأَيتُ سَبْعَ سُنْبُلاتٍ خُضْر ناضِرَة ظَهَرَتْ أَمَامِى ، ثمَّ اخْتَفَتْ ، وظَهَرَتْ بَدَلاً مِنْها سَبْعُ سُنْبُلاتٍ جافَّة يابِسَة ..

أَرْجُوكُمْ أَنْ تُفَسِّرُوا لِى هذا الْحُلْمِ الْغَرِيبَ ..

أنْصتَ الْحاضِرُونَ إلَى قِصَّةِ الْحُلْم ، لَكِنْ أَيًّا مِنْهُمْ لَمْ يَفْهَمْ لِهذَا الْحُلْمِ أىَّ مَعْنى .. اسْتَنْكَرَ الْكَهَنةُ والْعَرَّافُونَ ـ وهُمْ أَقْدَرُ النَّاسِ على تَفْسيرِ الأَحْلامِ ـ حُلْمَ الْمَلِكِ ، وقَالوا لَهُ : إنَّ ما رآهُ ما هوَ إلا نَوْعٌ مِنْ أضْغَاثِ الأَحْلامِ ، أى الأَشْياءِ الْمُخْتَلِطَةِ الْمُتَداخِلَة ، التى يراهَا النَّائِمُ ، والَّتى لا مَعْنَى لهَا ..



وَأَجْمَعَ الحَاضِرونَ على أنَّ هذَا الْحُلْمَ لا مَعْنى لهُ ، وأَنَّهُ مِنَ الْعَبَثِ تَفْسِيرُهُ ..

ولَكنَّ الْمَلِكَ كانَ على الْعَكْسِ مِنْهُمْ جميعًا .. كانَ يَرى أنَّ هذا الْحُلْمَ الْغَريبَ لابُدَّ أنْ يكُونَ لهُ مَعْنًى ..

وكان سَاقِي الْمَلِكِ ، الذى نَجا مِنَ السِّجْنِ حَاضِرًا ، فَتذكَّرَ فى هَذِهِ اللَّحْظَةِ فقطْ أَمْرَ يُوسُفَ عليه السلام .. تَذَكَّرَ أنَّ هُناكَ شَخصًا وَاحِدًا قادِرًا على تَفْسِير هذَا الْحُلْمِ ، وأَنَّ هذا الشَّخْصَ لَمْ يَزَلْ فِي السِّجْنِ .. فَقَدْ سَبَقَ أَنْ فَسَّرَ لهُ ولِلْخَبَّازِ حُلْمَيهِمَا ، وتَحَقَّقَتْ نُبوءَتُه ..

ولِذلكَ تقدَّمَ السَّاقِى مِنَ الْمَلِكِ قائِلاً :

ـ أَعْرِفُ شَخْصًا يسْتطِيعُ تَفْسِيرَ هذا الحُلْمِ لكَ أَيُّها الْمَلِكُ ..

فقالَ الْمَلكُ :

ـ ومَنْ هوَ هذا الشَّخْصُ أَيُّها السَّاقِى ؟!

فقالَ السَّاقِى :

ـ شخْصٌ يُدْعَى يُوسُفَ ، وهوَ الآنَ مَوْجُودٌ فِى السِّجْنِ ..

فَلْتَأْمُرْ لِى بِزيارَتِهِ ..

وذهبَ السَّاقِى إِلَى يوسُفَ عليه السلام فى السِّجْنِ ، فقَصَّ علَيْهِ حُلْمَ الْمَلِكِ ، طالِبًا مِنْهُ تَفْسِيرَهُ ..

فقالَ يوسُفُ عليه السلام :

ـ إِنَّ مِصْرَ مُقْبلَةٌ على سَبْعِ سَنوَاتٍ مُتَواصِلَةٍ مِنَ الرَّخاءِ ، تَعْقُبُها سَبْعُ سَنواتٍ مُجْدِبَةٍ لا زَرْعَ فِيهَا وَلا مَاءَ ..

وبعدَ ذلِكَ يأْتِى على مِصْرَ عامٌ كلُّهُ رَخاءٌ وخَيْرٌ ..

ووجّه يوسُفُ النَّصِيحَةَ إِلَى الْمِصْرِيِّينَ قَائِلاً :





ـ عليكُمْ فى السَّنواتِ السَّبْعِ الأُولَى ، وهى سَنواتُ الرَّخاء ألا تُسْرِفُوا فى اسْتِهْلاك الْقَمْحِ ـ وهوَ الْغِذاءُ الرَّئِيسِىُّ ـ بَلْ تزْرَعُونَ الأرْضَ ، وتأْخُذُونَ مِنَ الْمَحْصُولِ بقَدْرِ حاجَتِكُمْ فقَطْ ، والْباقى تترُكُونَهُ فى سَنابِلِهِ ، حتى لا يَفْسُدَ أوْ يأكُلَهُ السُّوسُ نَتِيجَةَ تَخْزِينِهِ فى صَوامِعِ الْغِلالِ ..لأنَّ هذا الزَّادَ الَّذِى ستدَّخِرونَهُ فى سَنواتِ الرَّخاءِ ، سَوْفَ تَحْتاجُونَ إِلَيْهِ فى سَنواتِ الْجدْبِ ، حتى لا تتعَرَّضَ مِصْرُ لِلْمَجاعَةِ ..

وعادَ السَّاقِى إلى الْمَلِكِ ، فلمَّا أَخْبَرَهُ بتَفْسير حُلْمِهِ ، الَّذى عَجز الْجَمِيعُ عن تفْسِيره ، أَصْدَرَ الْمَلِكُ أمْرَهُ بإخْراجِ يُوسُفَ مِنَ السِّجْنِ فى الْحَالِ ، وطَلَبَ إحْضارَهُ إلَيْه ليَكُونَ مُسْتَشَارَهُ الْخاصَّ ..

وذهَبَ رسُولُ الْمَلِكِ لإخْراجِ يُوسُفَ مِنَ السِّجْنِ ، فَرَفَضَ يوسُفُ عليه السلام أنْ يَخْرُجَ مِنَ السِّجْنِ ، بَلْ طَلبَ مِنَ الرَّسُولِ أَنْ يَعُودَ إِلَى الْمَلِكِ ، لِيَسْأَلَهُ أَوَّلاً عَنِ التُّهمَةِ الْمَنسُوبَةِ إِلَيْه مِن امْرَأةِ العَزيزِ ، فإذَا ثَبَتَتْ بَراءَتُه مِنْها خَرَجَ مِنَ السِّجْنِ ..

فلمَّا عادَ الرَّسُولُ إلَى الْمَلِكِ أَصْدَرَ أمْرَهُ بِسُرْعَةِ التَّحْقِيقِ فى هذه التُّهْمَةِ الْمَنْسُوبَةِ إِلَى يُوسُفَ ، فحضَرَتْ زَوْجَةُ الْعَزِيزِ ، وحضَرَتِ النِّسْوَةُ اللائِى قَطَّعْنَ أيْدِيَهُنَّ ، فسَألَهُنَّ الْمَلِكُ عَنْ سُلُوكِ يُوسُفَ وأَخْلاقِهِ ، فشَهِدَتْ جمِيعُ النِّسْوَةِ بِبَراءَةِ يُوسُفَ ، ودُخُولِهِ السِّجْنَ مَظْلُومًا .. واعْترَفَتِ امْرَأةُ الْعَزيزِ بأَنَّ يوسُفَ برِىءٌ ، وأَنَّها هِىَ الَّتِى رَاوَدَتْهُ عن نَفْسِهِ ، لكِنَّهُ اسْتَعْصَمَ باللهِ ..

اعْترفَتِ امْرأةُ العزيز بذَنْبها ، وبرَّأَتْ يُوسُفَ عليه السلام مِنْ كُلِّ ما نُسِبَ إلَيْهِ ، وأَرْجعَتْ مُراوَدَتَها لَهُ إلَى نَفْسِها الأَمَّارَةِ بالسُّوءِ ، واسْتَغْفَرَتْ رَبَّها ، لأَنَّهُ هو وَحْدَهُ الْغفُورُ الرَّحِيمُ لِمَنِ اسْتَغْفَرَ وتَابَ عَنْ ذُنُوبِه ..

ومِنَ الْوَاضِحِ هنا أَنَّ امْرَأَةَ الْعَزِيزِ بَعْدَ دُخُولِ يُوسُفَ السِّجْنَ ، قَدْ رَجعَتْ عَنْ دِينِهَا واعْتنَقَتْ دِينَ يُوسُفَ عليه السلام ..



فلمَّا ثبتَتْ بَراءَةُ يُوسُفَ عليه السلام وذهبَ الرَّسُولُ بِبراءَتِهِ ، خرَجَ مِنَ السِّجْنِ ، وقدْ برَّأه اللهُ ـ تعالَى ـ مِنْ كُلِّ ما نُسبَ إلَيْه .. وأرادَ الْمَلِكُ أنْ يكونَ يوسُفُ قَريبًا مِنْهُ ، لِيُشيرَ عَلَيْهِ فى الأُمورِ الْخَطِيرَةِ ، التى تَتعرَّضُ لهَا الْبِلادُ ، فطَلَبَ مِنْهُ يوسُفُ أَنْ يَجْعلَهُ مَسْئُولاً عَنْ خزَائِنِ الأَرْضِ ـ أىْ خزَائِنِ الْغِلَالِ والطَّعَامِ .. فوافقَ الْمَلِكُ وعَيَّنَهُ فِى الْحَالِ .. وهكذَا مَكَّنَ اللهُ ـ تعالى ـ لِيُوسُفَ فِى الأَرْضِ ..

عزيز مصر

خرجَ نَبِىُّ اللهِ يوُسُفُ عليه السلام مِنَ السِّجْنِ بَريئًا مِنَ التُّهْمَةِ التى أُلْصِقَتْ بهِ ظُلْمًا ..

وأَعْطاهُ مَلِكُ مِصْرَ الأمانَ ، وجعَلَهُ أَمينًا على خزائِنِ الأَرْضِ ومَخازِنِ الْغِلالِ والطَّعامِ ..

صارَ يُوسُف عليه السلام الْوزيرَ الأَوَّلَ ، أَوْ عَزيزَ مِصْرَ ، أَىْ رئيسَ الْوُزَراءِ ، وصارَتْ كلِمَتُهُ ومَشُورَتُهُ هى الْمَسْمُوعَةَ لَدى الْمَلِكِ ، ومَكَّنَ اللهُ ـ تعالى ـ له فى الأَرْضِ ..

وبدأَ يُوسف عليه السلام يُدبِّرُ أُمورَ مِصْرَ وشُئونَها الزِّراعيَّةَ والاقْتِصاديَّةَ ، فى سَنواتِ الرَّخاءِ ، فأَمَرَ بِبناءِ صَوامِعَ كثيرةٍ عِملاقَةٍ ، لِيُخزَّنَ فيها الطَّعامُ الزَّائِدُ عَنْ حاجةِ النَّاسِ فى السَّنواتِ السَّبْعِ الأُولى ، فما زادَ عَنْ حاجَتِهِمْ بَعْدَ جَمْعِ الْمَحاصيلِ يَتْرُكُونَهُ فى سَنابِلِهِ ويُخزِّنُونَهُ فى الصَّوامِعِ الْعِمْلاقَةِ ..

ومعَ نِهايةِ سَنواتِ الرَّخاءِ كانَ يُوسُفُ عليه السلام قد ادَّخرَ لِمصْرَ مَحْصُولاً وافرًا ، لِتُواجِهَ به سَنوات الْجَدْبِ ..

انْتهَتْ سَنواتُ الرَّخاءِ ، وجاءَتْ سَنواتُ الْجَدْبِ .. شَحَّ ماءُ النِّيلِ .. ونَقَصتِ الزِّراعَةُ .. لَمْ تُخْرِجِ الأَرْضُ غَلاتٍ .. بدَأَتْ سَنواتُ الْمَجاعةِ ، الَّتى تَنَبَّأَ بها يُوسُفُ عليه السلام ..

وبدأَ تَوافُدُ النَّاسِ مِنْ كُلِّ مكانٍ فى مِصْرَ ، يتوافَدُونَ على الْعَاصِمةِ طَلَبًا لِلطَّعامِ ..

ويوسُفُ عليه السلام هو الْمَسْئُولُ عنْ خزائِنِ الطَّعامِ ، وهوَ الْمَسْئُولُ عَنْ توْزيعِهِ على النَّاسِ

بحسابٍ دَقيقٍ ، حتى يَكْفىَ الْمخْزونُ النَّاسَ طُوالَ سَنواتِ الْمَجاعةِ السَّبْع وعمَّتِ الْمجاعَةُ الدُّولَ الْمُجاوِرَةَ لِمصْرَ أَيْضًا ، مِثْلَ بلادِ الشّامِ وفِلِسْطينَ وَغيرِهِمَا ، وبَدَأَ أَهْلُ هذه الدُّوَلِ يتوافَدُونَ على مِصْرَ لِشراءِ الطَّعامِ ، فمِصْرُ فى ذلِكَ الْوَقْتِ كانتِ الدَّوْلَةَ الْوَحِيدَةَ التى تَمْلِكُ مَخْزُونًا وافِرًا مِنَ الطَّعامِ ..

وكانَ مِنْ بَيْنِ الَّذين جاءُوا إِلَى مِصْرَ إخْوَةُ يُوسُفَ .. فَقدْ عمَّتِ الْمجاعَةُ فِلَسْطِينَ ، فأَرسَلَهُمْ أبُوهمْ يَعْقوبُ عليه السلام إِلى مِصْرَ ، لِشراءِ الطَّعام ..

كانَ عددُ إخْوَةِ يوسُفَ ، الذينَ جَاءُوا إلى مِصْرَ عشْرَةً .. لقدْ أَرْسلَ يَعْقوبُ أَبْناءَهُ جميعًا ، فيما عدَا ابْنًا وَاحدًا هو بِنْيَامِينُ أخو يوسُفَ مِنْ أُمِّهِ .. خافَ يَعْقوبُ أنْ يُرْسِلَهُ مَعَهُمْ ، فيَتَخَلَّصوا مِنْهُ ، كمَا تَخلَّصُوا مِنْ يوسُفَ مِنْ قَبْلُ ..

وكانَ مَعَ إِخْوَةِ يوسُفَ أَحَدَ عَشَرَ بَعيرًا .. وكانَ يُوسُفُ عليه السلام لا يُعْطِى أىَّ فَرْدٍ مِنَ الطَّعامِ سِوَى حِمْلِ بَعيرٍ واحِدٍ فى الْمَرَّةِ الْواحِدَةِ ..

ودَخلَ إِخْوَةُ يُوسف الْعَشْرَةُ عليْهِ ، فعَرَفَهُمْ يُوسُفُ ، ولَمْ يَسْتَطيعُوا هُمْ أنْ يتعَرَّفُوه ..

وكيْفَ يتعَرَّفونَهُ ، وقدْ أَلْقَوْهُ فى الْجُبِّ صَغيرًا ؟!

وكيْفَ يخْطُر ببالِهِمْ أَنَّ أخاهُمْ قَدْ صَارَ عَزيزَ مِصْرَ ؟!

ولَمْ يُظْهِرْ لهُمْ يُوسُفُ عليه السلام أَنَّهُ يعْرِفُهمْ .. أَخذَ مِنهُمُ النُّقُودَ ثمنَ الْقَمْحِ ، وأَمَرَ رِجالَهُ أَنْ يَكِيلُوا لِكُلٍّ مِنْهُمْ حِمْلَ بَعيرٍ مِنَ الْقَمْح ..

وأَمَر يوسُف رجالَهُ أَنْ يَدُسُّوا لَهُمُ النُّقُودَ الَّتى دَفَعُوهَا بيْنَ الْقَمْح .. أىْ أَنَّهُ أَعْطاهُمْ عَشْرَةَ أَحْمالٍ مِنَ الْقَمْحِ بِدُونِ ثَمَنٍ ..

فلمَّا كالَ لَهُمْ يوسُفُ الْقَمْحَ ، وحَمَلُوهُ فوْقَ جِمالِهِمْ ، وأَصْبَحوا مُسْتَعِدِّينَ للرَّحِيلِ ، نَظَرَ إِليهِمْ يُوسُفُ ، وقالَ لَهُمْ :

ـ إنَّ لَكُمْ أخًا منْ أبيكُمْ ، لَمْ تَأْتُوا به معكُمْ فى هذهِ الْمَرَّةِ ، فأَرْجُو أنْ تأْتُوا به معَكُمْ فى الْمَرَّةِ الْقَادمَةِ ، حتى أُعْطِيَهُ نَصِيبَهُ مِنَ الْقَمْحِ حِمْلَ بَعيرٍ كاملاً ، فتأْخُذوا أحَدَ عَشَرَ حِمْلاً ، بَدلاً مِنْ عَشْرَةِ أَحْمالٍ ..

فقالَ إخْوةُ يُوسُف :

ـ سَنُحاوِلُ إقْناعَ أبيهِ بأَنْ يَسْمَحَ لهُ بالْقُدُومِ معَنا فى الْمَرَّةِ الْقَادمَةِ ، لأَنَّه مُتَمَسِّكٌ بِهِ .. يُحِبُّهُ أكْثَرَ مِنَ اللَّازِمِ .. ولا يُرِيدُ أنْ يفارِقَهُ ..

فقالَ لهمْ يُوسُفُ :

ـ إذا لَمْ تأْتُوا بأَخِيكُمْ هذَا فى الْمَرَّةِ الْقَادمَةِ ، فلَنْ أَبيعَ لكُمْ طعامًا آخر ..

وعاد إخْوةُ يوسُفَ إلى أَرْضِ كَنْعَانَ بفلِسْطينَ ، حيْثُ يُقيمُونَ ، ودَخلُوا على أبِيهمْ فقالُوا لهُ :

ـ يا أَبانا لقَدْ مُنعَ الْكَيْلُ مِنَّا ، بسَببِ تَمَسُّكِكَ بِعَدمِ إرْسالِ أَخِينَا بنْيامِينَ معنا .. لقدْ حذَّرَنا عزيزُ مِصرَ ، إذا لمْ نَأتِ بأخِينَا معَنا فى الْمَرَّةِ الْقادمَةِ ، فلنْ يَبيعَ لنا الطَّعامَ .. وإذا أرْسَلْتَهُ معَنا فى الْمَرَّةِ الْقَادمَةِ فَسَوْفَ نَزْدَادُ حِمْلَ بَعِيرٍ .. سَنُحافظُ على أَخِينا ولنْ نُفرِّطَ فيهِ أبدًا ..

فنظرَ إلَيْهُمْ يَعْقوب عليه السلام قائلاً :

ـ كيْفَ آمَنُكُمْ علَيْهِ ، وقَدْ أَمِنْتُكُمْ على أَخِيهِ يُوسُفَ مِنْ قَبْلُ فضَيَّعْتُمُوهُ .. إنَّ اللهَ وحْدَهُ هوَ الْحَافِظُ ، وهوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمين ..

وبَدأَ إخْوَةُ يوسُف يُنْزِلُونَ رِحالَهُمْ ، ويفْتَحُونَهَا ، لِيُخْرِجُوا ما بِها مِنْ غِلالٍ ، فوجَدُوا أنَّ أمْوالَهُمُ الَّتى دَفَعُوها لِيُوسُفَ ثمنًا لِلْغلالِ ، قدْ أُعيدَتْ إلَيْهِمْ ..

وَرَدُّ ثَمَنِ الْبِضاعَةِ مَعْناهُ أنَّ يُوسُفَ لا يَرْغَبُ فى أَنْ يَبيعَ لَهُمْ مرَّةً أُخرى .. أَوْ مَعْناهُ أَنَّ يُوسُفَ يُحْرِجُهُمْ ، حَتَّى يَعُودُوا لِسَدَادِها مرَّةً أُخْرى ..



وعَادَ إخْوَةُ يُوسفَ إلى أبيهِمْ ، فقالوا لَهُ :

ـ انْظرْ يا أَبانا .. إنَّنا لَمْ نَكْذِبْ علَيْكَ ، أَوْ نَدَّعِ شيْئًا ليْسَ حقيقيًّا .. لقَدْ أعادَ عَزيزُ مِصْرَ ثَمَنَ الطَّعامِ إلينا ، وهذا مَعْناهُ أنَّهُ لا يَرْغَبُ فى التَّعامُلِ مَعَنا مرَّة أُخْرى ، إذا لَمْ يَذْهَبْ أَخُونا مَعَنا ..

فقالَ لهم يَعْقوبُ عليه السلام :

ـ لَنْ أسْمَحَ لهُ بالذَّهابِ معكُمْ ، حتَّى تُعاهِدُونى أَمامَ اللهِ ، عَلى أنَّكُمْ سَتُحافظونَ عَلَيْهِ ، وتَعُودونَ به سالمًا ، إلا إذا حدَث لكم مَكْرُوهٌ ، أوْ أَمْرٌ مِنْ قضاءِ اللهِ ، خارِجٌ عَنْ إرادَتِكُمْ ..

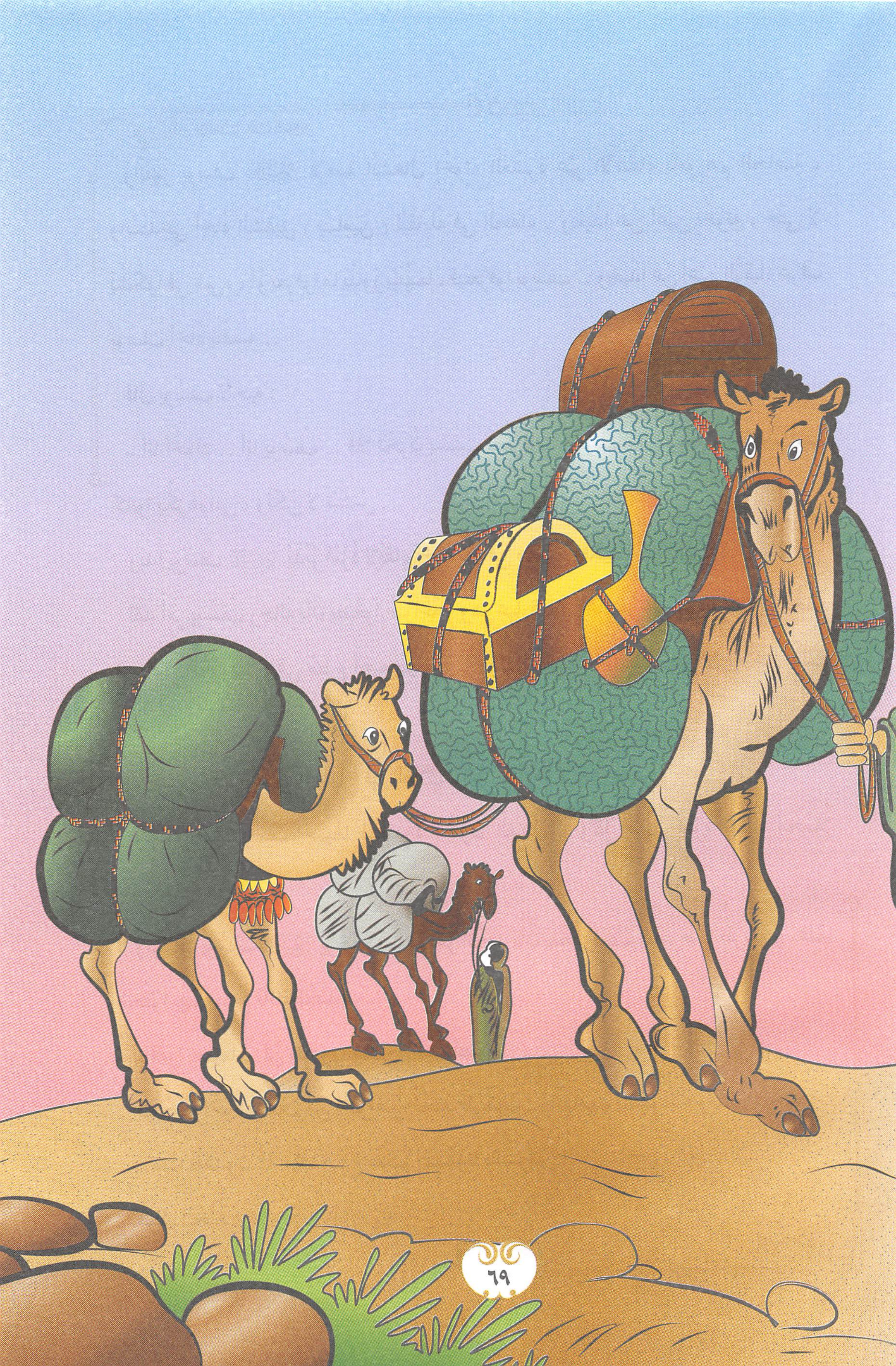
فعاهَدَ الإخْوةُ أَباهُمْ على أَنَّهُمْ سوْفَ يُحافظونَ على أَخِيهِمْ وسَوفَ يَعُودونَ به سَالِمًا ، ولَنْ يُضَيِّعوهُ ، كما ضَيَّعوا يُوسُفَ مِنْ قَبْلُ ..

ووَافقَ الأَبُ على ذَهابِ ابْنِهِ مَعهمْ ، وأَخذَ يُوصى أبْناءَهُ قائلاً :

ـ إذا وصَلْتُمْ مِصْرَ ، فلا تَدْخُلوا جَميعُكُمْ مِنْ بابٍ وَاحِدٍ ، ولكِنْ لِتَدْخُل كلُّ مَجْمُوعَةٍ مِنكُمْ من بَابٍ ، غيْرِ الَّذى دَخَلَ مِنْهُ الآخَرونَ .. هذا لِحاجَةٍ فى نَفْسى ..

رُبَّما كانَ يعقوبُ يَخْشَى على أوْلادِهِ مِنَ الْحَسَدِ ، أَوْ مِنَ اللصوصِ ، ولِهذا أوْصاهمْ بِعَدَمِ الُّدخولِ مِنْ بَابٍ وَاحدٍ ..

ثمَّ إنَّ يعقوبَ فى النِّهايَةِ أَسْلَمَ أَمْرَهُ إلى اللهِ ، وأَسْلَمَ ابْنَهُ (بِنْيامِين) إلى إِخْوَتِهِ وتحرَّكَتِ الْقافِلَةُ هذه المَرَّةَ مُغادِرَةً أَرْضَ كَنْعانَ ، وهى تَضُمُّ إخْوَةَ يوسُفَ الأحَدَ عشَرَ .. فلمَّا وَصَلوا إِلى حُدُودِ مِصْرَ ، دخَلوا مِنْ أَبْوابٍ مُتفرِّقَةٍ ، كما أَمرَهُمْ أَبوهمْ .. ولما دَخلوا على يُوسُفَ عرَفَهُمْ ، كَما عرفَهُمْ فى الْمَرَّة السَّابِقَةِ ، وهمْ لا يَعْرفونَهُ ..



وانْتهزَ يوسفُ عليه السلام فُرْصَةَ انْشغالِ إِخْوَتِهِ الْعَشْرَةِ غيْر الأَشِقَّاءِ بأُمورِهم الخاصَّةِ ، واسْتَدْعى أخاهُ الشَّقيق (بِنْيامِينَ) لِيُقابِلَهُ في الْخَفاءِ ، وبَعيدًا عَنْ أَعْيُنِ إِخْوَتِهِ ، حتَّى لا يَشُكُّوا في شَيْءٍ ، أَوْ يَعْرِفوا ما يَدُورُ بَيْنَهُما ، فيتعرَّفوا يوسُفَ .. وبَعيدًا عَنْ أَعْيُنِ الرُّقباءِ عَرَّفَ يُوسُفُ أَخاهُ بِنَفْسِهِ ..

قال يوسُف لأَخِيهِ :

ـ أنا أَخُوكَ .. أنا يوسُفُ .. فلا تَحْزَنْ بِسَبَبِ تَصَرُّفاتِ إِخْوَتِكَ مَعِي ومَعَكَ .. أَعْلَمُ أَنَّهُمْ كانوا يكْرَهونَنِي ، ولكِنْ لا تَبْتَئِسْ ..

وبدأَ يوسُفُ عليه السلام يُدَبِّرُ أَمْرَهُ لإبْقاءِ أَخِيهِ مَعَهُ في مِصْرَ .. فكَيْفَ كانَ ذَلِك ؟

لَقَدْ أَمر يوسُفُ رِجالَهُ بِأَنْ يَضَعُوا صُواعَهُ (وهو عِبارَةٌ عَنْ وِعاءٍ مِنَ الذَّهَبِ ، كانَ يُسْتَخْدَمُ في كَيْلِ الْحُبُوبِ) في مَتاعِ أَخِيه بنْيامِينَ ، وذلك بِطَرِيقَةٍ خَفِيَّةٍ ، حتَّى لا يُلاحِظَ ذَلك أَحَدٌ ..

فأَخْفَى رِجالُ يوسُفَ الصُّوَاعَ في الْغِلالِ ، الَّتي كالُوها لأَخِيهِ بنْيامينَ ..

وتَهيَّأَ إِخْوَةُ يوسُفَ جميعًا لِمُغادَرَةِ مخْزَنِ الْغِلالِ ، وكُلٌّ مِنهمْ يَقُودُ بَعِيرَهُ مُحَمَّلاً بالطَّعامِ ..

وتركَهُمْ يوسُفُ عليه السلام يرحَلُونَ .. ثمَّ أَمرَ الْجُنْدَ بأَنْ يَلْحقُوا بهِمْ ويَعْتَرِضُوا طَرِيقَهُمْ ، فلمَّا لَحِقوا بهِمْ صاحَ قائدُ الْجُنْدِ :

ـ قِفُوا جَمِيعًا .. لَنْ تُغادِروا مِصْرَ .. أَنْتُمْ لُصوصٌ ..

فتَعَجَّبَ إِخْوَةُ يوسُفَ مِنَ اعْتراضِ الْجُندِ طريقَهُمْ ، واتِّهامِهِمْ بالسَّرِقَةِ ، وسألوا الْجُنْدَ :

ـ ماذا تَفْقِدُونَ ؟! ماذا ضاعَ منْكُمْ لِتتَّهِمُونا بالسَّرِقَةِ ؟!

فَقالَ الْجُنْدُ :





ـ نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ ، الصُّوَاعَ الَّذى نَكِيلُ بِهِ الْغِلالَ .. وقَدْ جعل أَمِينُ مخَازِنِ الْغلالِ مُكافأةً حِمْلَ بَعِيرٍ منَ الْقَمْحِ لِمَنْ يَدُلُّنا عَليْه ..

فَقالَ إِخْوةُ يوسُف :

ـ ما جِئْنا لِكى نَسْرِقَ أَوْ نُفْسِدَ فى الأَرْضِ ..

فَقالَ الْجُنودُ :

ـ ما جَزاءُ مَنْ نَجِدُ الصُّواعَ فِى بِضاعَتهِ ؟!

فرَدَّ اخْوةُ يوسُف :

ـ إنَّ شَريعَتنا تَحْكُمُ على السَّارِقِ بأَن يَصيرَ عَبْدًا رَقيقًا لِمَنْ سَرَقَ مِنْهُ .. فَمنْ تجِدُون الصُّواعَ فى بضاعَتِهِ يَصيرُ عَبْدًا لكُمْ ..

وقادَهُمُ الْجُنْدُ إلى يوسُفَ ، لِيَتمَّ تفْتِيشُ بضَاعَتِهِمْ وَاحدًا فَواحِدًا ، فأَمَر يوسُفُ أَنْ يُفَتِّش رجالُهُ بِضَاعةَ إِخْوَتِهِ الْعَشْرةِ أَوَّلاً ، ففتَّشُوهم ، فَلَمْ يجدُوا الصُّواعَ ، ثمَّ فتَّشوُا بضاعَةَ أَخِيهِ بِنْيامِينَ فأَخْرَجُوهُ مِنْها ..

فتَبادلَ إِخْوَةُ يوسُفَ نظراتٍ تَدُلُّ على ضِيقِهِمْ مِنْ بِنْيامِينَ ، الَّذى وضَعَهُمْ فى هذا الْمَأْزِقِ ..

ثمَّ قالوا :

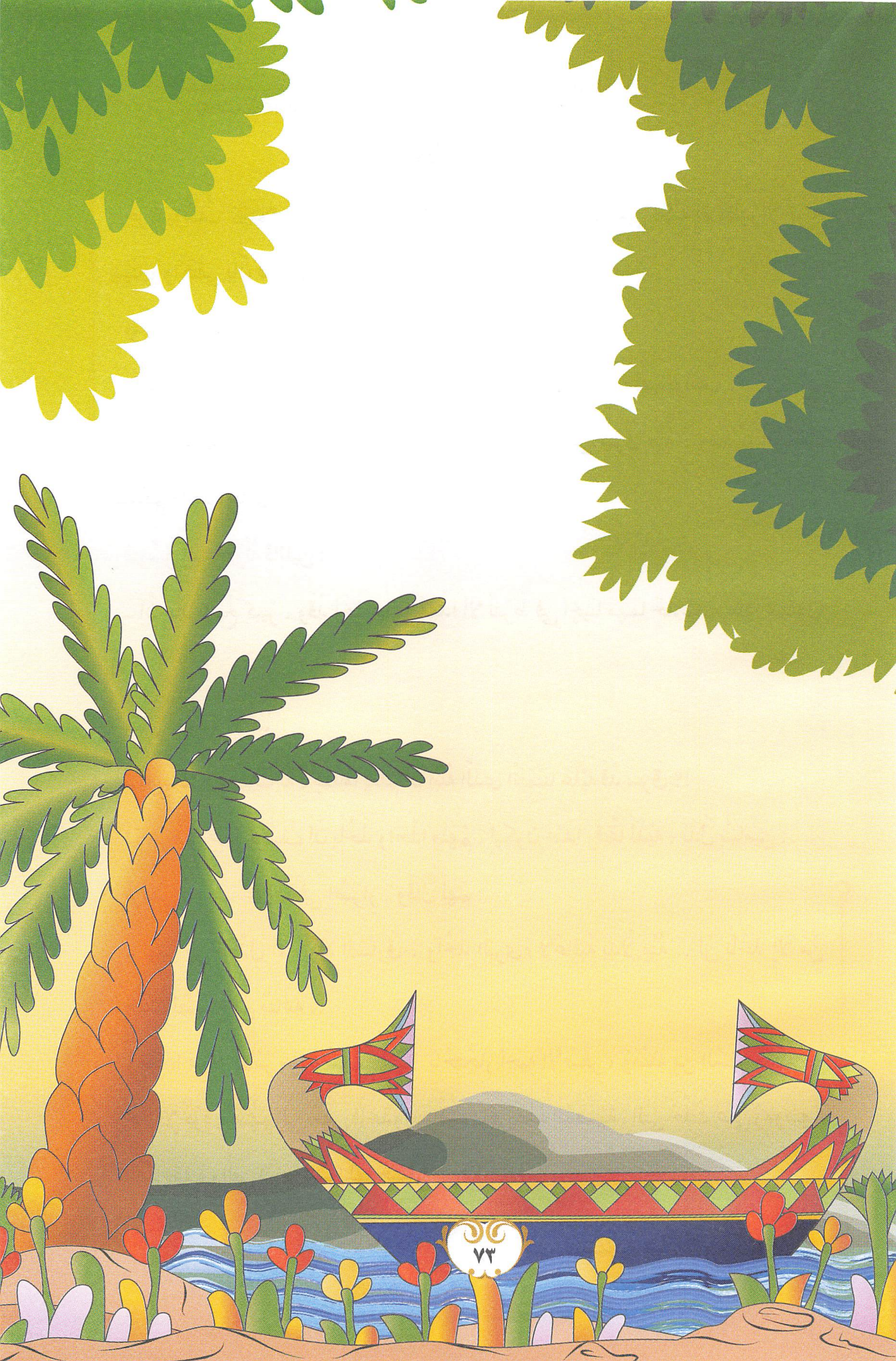
لِيْسَ غريبًا أنْ يسْرِقَ أخُونَا هذا صُواعَ الْمَلِكِ الْيَوْمَ ..

لَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لهُ مِنْ قَبْلُ ..

إِنَّهُمْ يتَّهِمونَ يوسُفَ وأَخاهُ بالسَّرِقَةِ ، وهمْ لا يَعْلَمُونَ أنَّ مَنْ يُوَجِّهُونَ إِلَيْهِ الْكلامَ هوَ يوسُفُ نَفْسُهُ ..

وحَزِنَ يوسُفُ عليه السلام حُزنًا شَدِيدًا ، لهذا الاتِّهامِ الظَّالمِ الْمُوَجَّه إليْهِ ، لَكنَّهُ لمْ يُظْهِرْ لهم شَيْئًا ..

كَيْف تصرَّفَ يوسُفُ مع إِخْوَتِه حِيالَ هذهِ السَّرِقَةِ ؟



الحُلم يتحقق

حَزِنَ يوسُفُ عليه السلام عِنْدَما اتَّهَمَهُ إِخْوَتُه بالسَّرِقَةِ هوَ وأَخاهُ بِنْيامين لكِنَّه لَمْ يُظْهِرْ لإِخْوَتِه شَيْئًا ، واكْتَفى بأَنْ قالَ فى نَفْسه :

﴿ أَنتُمْ شَرٌّ مَكانًا واللهُ أَعْلَمُ بما تَصِفُونَ ﴾ .

وأَخذَ إِخْوةُ يوسُفَ يتوسَّلونَ إليْه طَالبينَ الْعَفْوَ عَنْ أَخِيهِمْ .. فقالَ لهمْ يوسُفُ :

ـ لَقَدْ حكَمْتُمْ على أَنفُسِكُمْ بأَنَّ السَّارِقَ يُصْبِحُ عَبْدًا لِمَنْ سَرَقَ مِنْهُ ، ويجِبُ أَنْ أُنَفِّذَ الْحُكْمَ وآخُذَ أَخاكُمُ الَّذى سَرقَ ..

فتوسَّلَ إِلَيْهِ إِخْوَتُه قائِلينَ :

ـ إِنَّ أَبَانا شَيْخٌ كبيرٌ ، وقَدْ أَخذَ علَيْنا عَهْدًا أَلا نُفرِّطَ فى أَخِينا مَهْما حَدَثَ .. ماذا سَنَقُولُ لَهُ ؟!

فقالَ أخوهُمُ الأَكْبَرُ :

ـ بَلْ ماذا سَيحْدُثُ له ، عِنْدَما يَعْلَمُ أَنَّ ابْنَهُ الَّذى ائْتمَنَنا علَيْه قَدْ سَرقَ ؟!

ثُمَّ عرضُوا على يوسُفَ أَنْ يأْخُذَ واحدًا مِنْهُمْ ، لِيكونَ عَبْدًا رَقيقًا لَدَيْهِ ، بَدَلَ بِنْيامين ..

فرفضَ يوسُفُ عليه السلام فى إِصْرارٍ ، وقالَ لَهمْ :

ـ لَيْسَ مِنَ الْعَدْلِ أَنْ أَترُكَ السَّارِقَ ، وآخُذَ الْبَرىءَ لأُعاقِبَهُ بدلاً مِنْهُ .. لنْ نأْخُذَ إِلا مَنْ وجَدْنا الصُّواعَ فى مَتاعِهِ ..

وهكذا صدَرَ الأَمْرُ منْ يوسُفَ عليه السلام باحْتِجازِ أَخِيهِ الأَصْغَرِ ، وَمَنْعِهِ مِنَ السَّفَرِ مَعَهُم .. وَخلا الإِخْوَةُ بَعْضُهُم إلى بَعْضٍ فأَخذوا يتناقَشُونَ فى هذه الْمُصِيبَةِ ، التى حَلَّتْ على رُءوسِهِم كالصَّاعِقَةِ ، والَّتى لَمْ يحْسِبُوا لها حِسابًا مِنْ قَبْلُ ..





ماذا سيقولونَ لأَبيهمْ وقَدْ أَخذوا على أنْفُسِهِمْ عهْدًا بالْمُحافَظةِ على أَخِيهمْ ، والعَوْدَةِ به إليه سَالمًا ، مَهْمَا كانتِ الظُّروفُ ، ومهما اعْترضَهُمْ مِنْ صِعابٍ أَوْ عقبَاتٍ ؟!

ورفَضَ الأَخُ الأكْبَرُ أَنْ يتحرَّكَ مِنْ مِصْرَ ، لِيَعُودَ مَعَ إخْوَته ، بدُونِ أخيهِ (بنْيامين) فقالَ لإخْوَته :

ـ لقدْ أَخذَ أَبُونا علَيْنا عَهْدًا ، ألاَّ نُفَرِّطَ فى بِنْيامِينَ ، كما فرَّطنا فى يوسُفَ مِنْ قبلُ .. عُودوا أنْتُمْ إلى ديارِنَا ، أما أنا فلَنْ أتحرَّكَ مِنْ هُنا ، حتَّى يأذنَ لى أَبى بذَلِك ، أَوْ يَحْكُمَ اللهُ فى أَمْرى ، فيُظْهِرَ الْحَقيقةَ ، ويعْرِفَ أَبى أَنِّى لَمْ أُفرِّطْ فى أَخِى أَوْ أُضيِّعْهُ ، فالله وحدَهُ هو خَيْرُ الْحَاكمينَ ..

فقال بَقِيَّةُ الاخْوَةِ :

ـ وماذا سَنفْعَلُ إِذنْ ؟!

فقال الأَخُ الأكْبَرُ :

ـ ارْجِعوا إلى أَبيكمْ ، وقُصُّوا علَيْه ما حدَثَ .. لقدْ رَأَيْتُمْ كَلَّ شيءٍ بأعْيُنِكُمْ ، وسَمِعْتموهُ بآذانِكُمْ ..

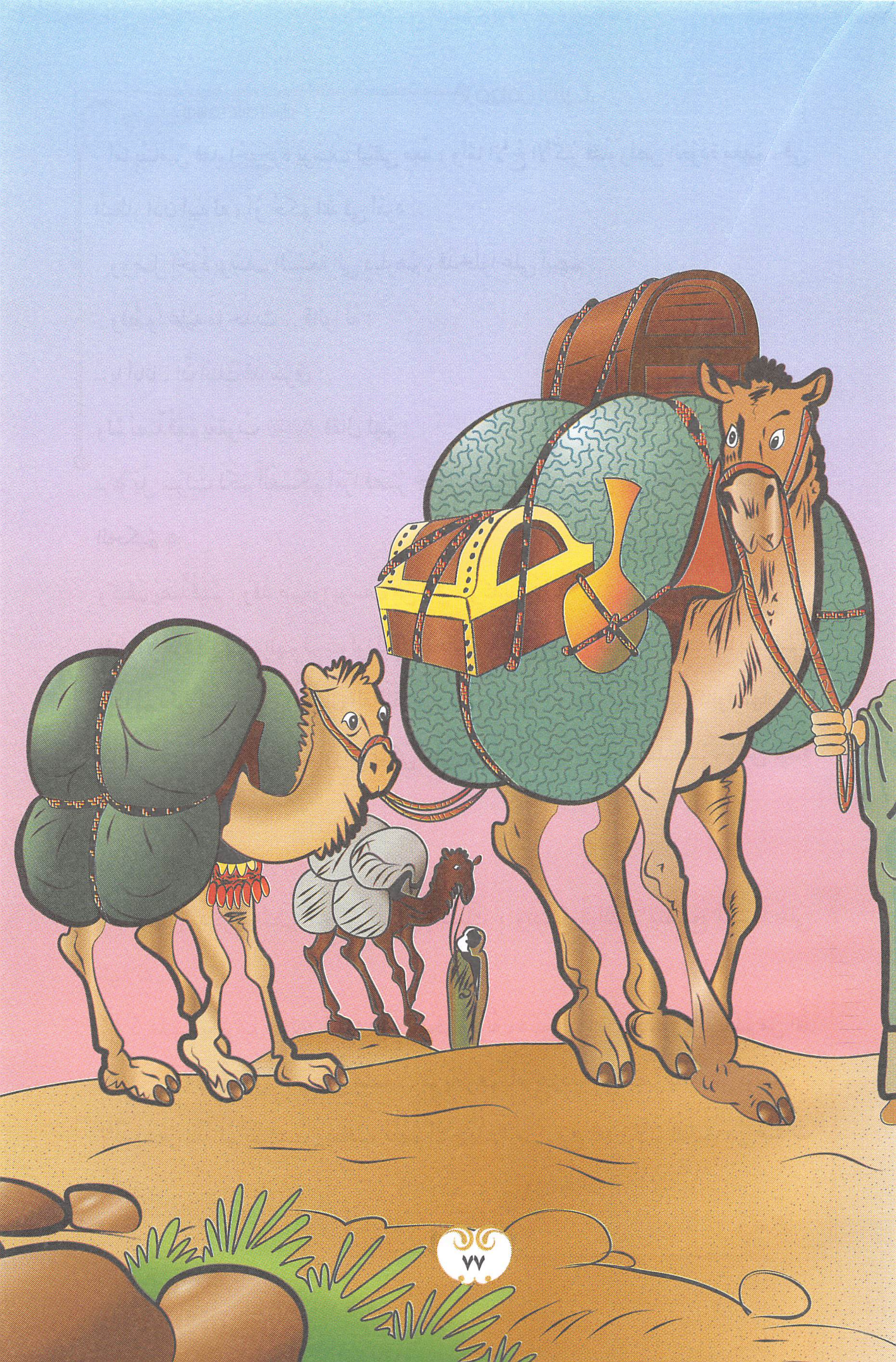
قولوا لأَبيكمْ إِنَّ ابنهُ قدْ سرَقَ ، وإنَّهُمْ يشْهَدُونَ بالْحقيقَةِ .. فقال الإخْوَةُ :

ـ وإذا لَمْ يُصَدِّقْنا ؟!

فقال الأَخُ الأكْبَرُ :

ـ قولوا لهُ : إِنَّكمْ حينَ أَخذْتُمْ على أَنْفُسِكُمْ عَهْدًا ، لَمْ تَكونوا تَعْلمونَ الْغَيْبَ ، لِتَعْرِفوا أَنَّ ابْنهُ سَوفَ يَسْرِقُ .. وإذا لَمْ يُصدِّقْ أنَّ ابْنَه قدْ سرَق ، فلْيسْألِ الْقافِلةَ التى كانتْ معنا فى مِصْرَ .. أَوْ لِيَأْتِ إلى مِصرَ ويَسْألْ أَهْلَها بنفْسهِ ..

وهكذا تَحرَّكَتِ الْقَافلةُ عائِدَةً إلى فِلَسْطينَ ، وفيها تِسْعَةٌ فقطْ مِنْ إِخْوَةِ يوسُفَ ..



أَمَّا بِنْيامينُ فَقَدِ احْتَجَزَهُ يوسُفُ لِيبْقى معَهُ ، وأَمَّا الأَخُ الأَكْبَرُ فقدْ رفضَ الْعَوْدَةَ معهمْ ، في انْتِظارِ إذنِ أَبِيهِ له ، أَوْ حُكمِ الله في أمْرِهِ ..

ووصلَ إخْوَةُ يوسُفَ التِّسْعَةُ إلى دِيارِهِمْ ، فدَخلُوا على أَبِيهِمْ ..

وقَصُّوا عليْه ما حَدَثَ .. قالوا لهُ :

ـ يا أَبانا ، إِنَّ ابْنَكَ قَدْ سَرَقَ ..

ولَمْ يُصدِّقْهُمْ يَعْقوبُ عليه السلام فقالَ لهمْ :

ـ ﴿ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فصَبْرٌ جميلٌ عسى الله أَنْ يأْتِيَنِي بِهِمْ جَميعًا إِنَّهُ هوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ .

وكَيْفَ يُصَدِّقُهُمْ ، وقدْ ضَيَّعوا يوسُفَ مِنْ قَبْلُ ، وكذَبوا عَلَيْهِ ؟!

فقالَ الإخْوَةُ لأَبيهِمْ : إِنَّهمْ لمْ يقولوا لهُ إلا الْحقيقةَ ، كما رَأَوْها بأَعْيُنِهِم ، وسَمِعُوها بآذانِهِمْ ، وإذا لمْ يكُنْ يُصدِّقُهُمْ ، فلْيَسْأَلِ الْقافِلَةَ الَّتي كانتْ مَعَهُمْ ، وأَهْلَ الْبَلْدَةِ الَّتي كانوا فِيها ..

فتَولَّى يَعْقُوبُ عليه السلام عنْهُمْ وراحَ يَبكي على يوسُفَ وأَخِيهِ ، حتَّى فَقَدَ بَصَرَهُ ، مِنْ شِدَّةِ الْبُكاءِ ..

فقالَ لهُ الإخْوَةُ :

ـ سَتظَلُّ تذْكُرُ يوسُفَ ، حتَّى يهْزُلَ جِسْمُكَ ، وتَضِيعَ قُواكَ ، وتُصْبِحَ مُشْرِفًا على الْهلاكِ ..

فردَّ عَليهِمْ يَعقوبُ عليه السلام قائلاً : إِنَّهُ يَشْكُو حُزْنَهُ وهَمَّهُ إلى الله وَحْدَهُ ؛ لأَنَّهُ يعلَمُ منَ الله ـ تعالى ـ ما لا يَقْدِرونَ هم على عِلْمِهِ .. ثُمَّ يأْمُرُهم بأَنْ يَعُودُوا إلى مِصرَ بَحْثًا عنْ يُوسُفَ ؛ لأَنَّهُ يَشْعُرُ بأَنَّهُ لَمْ يَمُتْ .. ويَطْلُبُ مِنْهمْ ألا يَيْئَسُوا مِنْ رَوحِ الله ؛ لأَنَّ الْيَأْسَ مِنْ صِفاتِ الْكافِرِينَ ..



وتَتحرَّكُ قافلَةُ إخوَةِ يوسُفَ إلى مِصرَ مَرَّةً أُخْرى .. فى هذه الْمَرَّةِ نرى إخْوةَ يوسُفَ ، وقدْ سَاءَ حَالُهُمْ ، وتَدَهْوَرَ .. إنَّهُمْ يَحملونَ بضاعة رَديئَةً هذهِ الْمَرَّةَ ، لِيشْتَرُوا بها الطَّعامَ ، بَعْدَ أَنْ أصابَهُمُ الْفقْرُ والْقَحْطُ ..

ودَخلوا على يوسُفَ ، وهمْ مازَالُوا لا يعْلَمُونَ أَنَّهُ يوسُفَ ، بِرَغْمِ أَنَّ أَبَاهُمْ قدْ أوْصاهُمْ بالْبَحْثِ عَنْهُ ..

فقالوا لِيوسُفَ :

ـ ﴿ يأيُّها الْعَزيزُ مَسَّنا وأَهْلَنا الضُّرُّ وَجِئْنا بِبِضاعَةٍ مُزْجاةٍ فَأَوْفِ لنا الْكَيْلَ وتصَدَّقْ عَلَيْنا إِنَّ الله يَجْزِى الْمُتَصَدِّقينَ ﴾ .

لقدْ أَصْبَحْنا فُقراءَ ، وقدْ أَصَابَنا الضُّرُّ ، وأَصابَ أَهْلَنا ، فتصَدَّقْ عَلَيْنا أَيُّها الْعزيزُ ، وأَوْفِ لنا الْكَيْلَ ، لأَنَّ الله لا يُضيعُ أَجْرَ الْمُتَصَدِّقينَ ..

وبدأ يوسُفُ عليه السلام حِوارَهُ معَهُمْ ، فسَأَلهُمْ أَوَّلاً :

ـ ماذا فعَلْتُمْ بيُوسُفَ وَأَخيه ؟

فعَقَدَتِ الدَّهْشَةُ أَلسنَةَ الإِخْوَةِ ، وأَخَذُوا يَنْظرونَ إلى يوسُفَ .. ثمَّ قَالوا :

ـ أَلَسْتَ أَنْتَ يوسُف ؟!

فأَجابَهُمْ يوسُفُ عليه السلام :

ـ نعَمْ أنا يوسُفُ ، وهذا أَخى .. لَقدَ مَنَّ الله علىَّ وعلى أَخى بِرَغْم كَيْدِكُمْ لنا ، وإنَّ الله ـ تعالى ـ لا يُضيعُ أَجْرَ الصابرينَ الْمُحْسِنينَ .

فاعْتَرَفَ إخْوَةُ يُوسُفَ له بالْخَطإِ الَّذى ارْتكَبُوهُ فى حقِّهِ ، حينما كانَ صَغيرًا إذْ أَلقَوْهُ فى الْبِئْر ، ولكنَّ الله ـ تعالى ـ نجَّاهُ مِنْ كَيْدِهِمْ ، وجَعَلَهُ فى هذه الْمكانَةِ الْمُرْتَفِعَةِ ..



وبدأ إخْوَةُ يوسُفَ يَرْتَجِفُونَ مِنَ الْخَوْفِ ، عِنْدما تذكَّرُوا أَنَّهُمْ يُخَاطِبونَ عَزيزَ مِصْرَ .. لَقَدْ صارَ يوسُفُ عَزِيزَ مِصْرَ .. الْمُتحكِّمَ والْمُتصرِّفَ فى كُلِّ شىْءٍ ..

لابُدَّ أَنَّهُ سيَنْتَقِمُ مِنْهُمْ على ما فعَلُوهُ مَعَهُ ، ومعَ أَخيهِ ..

وأحَسَّ يوسُفُ عَلَيْهِ السَّلَامُ بالْخَوْفِ يَسْرى فى كِيانِهِمْ ، فطَمْأَنَهُمْ بقَوْلِهِ :

ـ لا لوْمَ عليْكُمْ ، بسببِ ما ارْتكَبْتُمُوهُ فى حَقِّى مِنْ جرائِمَ ، وفى حَقِّ أَخِى ..

وأَخَذَ يوسُفُ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَدْعو اللهَ أَنْ يَغْفِرَ لَهُمْ ذُنُوبَهُمْ ويسَامِحهُمْ ، فَهوَ وحْدَهُ أَرْحَمُ الرَّاحمين ..

ويخْلَعُ يوسُفُ قَميصَهُ ، ويُعْطيهِ لإخْوَتِه قائلاً لَهُمْ :

ـ خُذوا قَميصى هذا ، وعُودُوا بهِ إلى هُناكَ ، فألْقُوهُ على وجْهِ أبى ، فَيَعُودَ إليهِ بَصَرُهُ مَرَّةً أُخْرى .. ويطْلُبُ مِنهُمْ أَنْ يُحْضِرُوا أَهْلَهُمْ جميعًا ..

ومرَّةً أُخْرى يَتحرَّكُ رَكْبُ الإخْوَةِ عائدًا مِنْ مِصْرَ إلى فلسْطينَ ، ولكِنْ فى هذه الْمَرَّةِ الْقافِلَةُ تَحْملُ شَيْئًا غالِيًا ، إنهُ قميصُ يوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وفيهِ ريحُ يوسُفَ ورائِحَتُهُ ..

ويَحُسُّ يعقوبُ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِريحِ يوسُفَ ، ويَشُمُّ رَائِحَتَهُ على الْبُعْدِ .. فيقُولُ لِمَنْ مَعَهُ فى الْبَيْتِ ، إِنَّهُ يُحِسُّ ريحَ يوسُف ، لكِنَّ أَحَدًا لا يُصَدِّقُهُ ، يتعَجَّبُ الْحاضِرونَ .. يَظُنُّونَ أَنَّ يعْقُوبَ مِنْ كَثْرةِ تذكُّرِهِ لابْنِهِ يوسُفَ ، قدْ بَدَأَ يُحِسُّ أَشْياءَ غريبَةً ، ويتخيَّلُ أشْياءَ غَيْرَ حَقيقيَّةٍ .. كَيْفَ يَقُولُ إنَّهُ يُحِسُّ بريحِ يوسُفَ ، ويوسُفُ قَدْ ماتَ مُنْذُ زَمَنٍ بَعيدٍ ؟!

لابُدَّ أَنَّ يَعْقوب مازالَ فى ضَلالِه الْقَديم ..

ولكِنَّ الْقافِلَةَ تصِلُ إلى دِيار يَعْقوب .. وأَحَدُ أَبْناءِ يَعْقُوبَ يَحْملُ قَميصَ أَخيهِ يوسُفَ .. ويُهْرَعُ يَعْقُوب لاسْتِقْبالِهِمْ ، فَيُلْقِى الابْنُ بالْقَميصِ على وجْههِ ..



ويَعُودُ لِيعْقُوبَ بَصَرُهُ الَّذى فقدَهُ فى الْحالِ ، فيَبْتَسِمُ يعْقُوبُ عليه السلام ويَقولُ لِمَنْ حَوْلَهُ :

ـ أَلَمْ أَقُلْ لكُمْ إِنَّ يوسُفَ لَمْ يزَلْ حَيًّا ؟! هلْ صدَّقْتُمُ الآنَ ؟! أَلَمْ أَقُلْ لكُمْ إِنِّى أَعْلَمُ مِنَ الله ما لا تَعْلَمُونَ ؟!

ويعْترفُ الإِخْوَةُ بخَطَئِهِمْ ، طالبينَ مِنْ أبيهِمْ أَنْ يَسْتَغْفِرَ لهُمْ ذُنوبَهُمْ ..

ويَعِدُهُمْ يَعْقوبُ عليه السلام بأَنَّهُ سَوْفَ يسْتَغْفِرُ لَهمُ الله ، فَهوَ وحْدَهُ الْغفورُ الرَّحيمُ ..

ويُسافِرُ يَعْقُوبُ وزَوْجَاتُهُ وأَبْناؤُهُ وزَوْجَاتُهُمْ جميعًا إلى مِصْرَ ..

وهُناكَ يَدْخُلونَ على يُوسُفَ ، فيَسْتَقْبِلُهُمْ مُرَحِّبًا بأبيهِ ، ويُجْلِسُ أَباهُ وأُمَّهُ على سَريرِه الَّذى كانَ يجْلِسُ عَلَيْهِ وَهُوَ يُديرُ شُئونَ الدَّوْلَةِ ..

وهنا يَميلُ الْجميعُ بِرُءُوسِهِمْ تَحيةً ليوسُفَ ، فيتَذَكَّرُ يوسُفُ الرُّؤْيا الَّتى رآها ، وهوَ طِفْلٌ ، حيْثُ رَأى أَحَدَ عشَرَ كَوْكبًا والشَّمْسَ والْقَمَرَ سَاجِدينَ لَهُ ، فيقولُ لأَبيهِ : إِنَّ هَذا تَفْسيرُ رُؤْياه ، وقدْ تحقَّقَ ما جاء بها ثم يَتحدَّثُ يوسُفُ عليه السلام عَنْ نِعَمِ الله ـ تعالى ـ علَيْه ، حيْثُ أَخْرَجَهُ مِنَ السِّجْنِ وبَرَّأَهُ مِنْ تُهْمَةٍ ظَالِمَةٍ ، وجَعَلَهُ نَبيًّا ، ومَنَّ عليْهِ بجمْع شَمْلِ أُسْرَتِهِ أَخيرًا ، بَعْدَ أَنْ تسبَّبَ الشَّيْطانُ فى التَّفْريقِ بَيْنَهُ وبَيْنَ إِخْوتِهِ كُلَّ هذهِ السَّنواتِ ..

تَمَّتْ





قصص الأنبيــاء

شعيب عليه السلام





كانَ أَهْلُ مَدْيَنَ قومًا ضالِّينَ ، غيْرَ مُؤمنين ..

وكانوا يتصفونَ بعَدَدٍ مِنَ الرَّذائِلِ والنَّقَائِصِ والصِّفاتِ السَّيئَة ، والْخصال غَيْر الْحميدَةِ ، الَّتى تَدُلُّ على الْخُبْثِ ، والْغِشّ وعَدمِ النَّقاء ..

كانوا قوْمًا مشْهُورينَ بالتِّجارَة ، والْبَيْع والشِّراءِ ، لكنهُمْ أيْضًا اشْتهَرُوا بعَدم الأَمانةِ ، وانْعِدامِ الصِّدْقِ ، فى تعَامُلِهِمْ مَعَ الآخرينَ ..

كانوا قَوْمًا يَبْخسُونَ النَّاس أَشْيَاءَهُمْ .. فهُمْ غَيْرُ أُمَنَاءَ أَوْ عَادِلين فى عَمليِّةِ الْبَيْع والشِّرَاءِ .. فإذا بَاعُوا أَحَدًا سلْعَةً مِنَ السِّلَعِ ، سَرَقُوا منْها .. ونَقَصُوا الْمِكْيالَ ، وبَخسُوا الْمِيزانَ .. فهُمْ بذلك يَسْرقُون ولَا يُعْطُونَ النَّاسَ حُقُوقَهُمْ ..

وإذا اشْترَوْا مِنْ أحدٍ سلْعَةً مِنَ السِّلَع سَرَقُوا مِنْهُ ، وأَخذوا أَكْثَرَ من حَقِّهِمْ .

فإِذا اشْترَوا زَادُوا وأَخذُوا أَكْثَر مِنْ حَقِّهِم ، وإِذا بَاعُوا نَقَصُوا ، وأَعْطَوُا النَّاسَ أقلَّ مِنْ حَقِّهِمْ ..

وكانوا إِذا اشْتَرَوْا مِنْ أَحَدٍ سِلْعةً سَاوَمُوهُ وفَاصَلوا مَعَهُ ، حتَّى يُخَفِّضُوا مِنْ ثمنِها ، ويَشْترُوها بأَبْخَسِ ثَمَنٍ وأَقَلِّ سِعْرٍ ..

وإِذا بَاعُوا أَحدًا سلْعَةً زادُوا فى ثَمَنِها ، وغالَوْا ، فيَأْخُذونَ أَكْثرَ مِنْ حَقِّهِمْ .

وكانوا يَعْتَبِرُون أَنَّ الْمُسَاوَمَةَ وبَخْسَ الثَّمنِ ، والسَّرِقَةَ فى الْمِيزانِ والْمكْيال نَوْعٌ مِنَ الشَّطارَة والْمَهارة فى التِّجارَةِ ، ولَيْسَتْ سَرقَةً يُعَاقِبُ علَيْهَا اللهُ ـ تعالَى ـ عليْهم ووسَّعَ لَهُم فى أَرْزَاقِهِمْ ، وحَيَاتِهِم ، لَكنَّهم بَدَلَ أَنْ يُقَابلُوا نعَمَ اللهِ بالشُّكْر جَحدُوها ، وعَبَدُوا غَيْرَ اللهِ تعالَى ..

وكانَ نَبِيُّ اللهِ شُعَيْبٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ واحِدًا مِنْ أَهْل مَدْيَن ..

لَمْ يكُنْ غَرِيبًا عنهُمْ ، بلْ كانُوا أَهْلَهُ وعَشِيرَته ..





لكنَّ شُعَيْبًا عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمْ يَكُنْ مِثْلَهُمْ ، ولَمْ تكُنْ به صِفَةٌ مِنْ صِفَاتِهِمُ الْمَذْمُومَةِ ..

كانَ شُعَيْبٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ يتّصف بالْأمانَةِ وحُسْنِ الْخُلقِ ، وتَقْوى اللهِ ، وحُبِّ الْخَيْرِ لِلنَّاسِ جمِيعًا ..

ولَمْ يكُنْ يُعْجبُهُ أَهْلُ مَدْيَنَ فى طَرِيقَةِ تَعامُلِهِمْ معَ النَّاس ، ولَمْ يكُنْ رَاضيًا عنْ غشِّهِمْ ، وبَخْسِهِمُ الْمِكْيَالَ والْميزَانَ ..

وقدْ أرْسَل اللهُ ـ تعالَى ـ نَبِيَّهُ شُعَيْبًا عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى قَوْمِه من أَهْلِ مَدْيَنَ لِهِدَايَتِهم ، وإِبْلاغِهِمْ رِسَالَتَهُ ..

فكانَ أوَّلُ شَىْءٍ دَعَا شُعَيْبٌ إِلَيْهِ قَوْمَهُ ، بعْدَ أنْ عرَّفَهُمْ أنه نَبِىٌّ مُرْسَلٌ من اللهِ إِلَيْهِم ، هُوَ أَنْ أمَرهُمْ بعبادَةِ اللهِ الْوَاحِدِ الأحَدِ ، الذى لا إِلَهَ غَيْرُهُ ، والذى يَجِبُ أنْ يَتَّجِهَ إِلَيْه جميعُ الْخَلْقِ بالعِبادَةِ، دُونَ سِواهُ ..

ثمَّ لَفَتَ شُعَيْبٌ انْتباهَ قَوْمِهِ إلى شَىْءِ مُهم ، يَحْدُثُ فى حيَاتِهِمُ الْيَوْمِيَّةِ ، وهوَ بَخْسُهُمُ النَّاسَ أشْيَاءَهُمْ ، ونَقْصُهُمُ الْكَيْلَ والْمِيزَانَ .. وقال لهُمْ :

إِنَّ ما تَفْعَلُونَهُ خطَأٌ ، بلْ هوَ ضدُّ الشَّرْع ، ومُخَالفٌ لِلدِّين ، وعقابُهُ أَلِيمٌ ..

قال لهمْ :

ـ لا تَنْقُصوا الْمكيَالَ والْمِيزَانَ ، لأنِّى أَخافُ عليْكُمْ عذابَ يوْم القِيامة ، حيث لا تنفع الأموال ..

وأَمَرَهُمْ أنْ يُوَفُّوا الْكَيْلَ والْمِيزَانَ بالْعَدْل ، ولا يَنْقُصُوا النَّاس حُقُوقَهمْ ، أوْ يَبْخَسُوهُمْ أَشْيَاءَهُمْ .. وألا يتعمَّدوا نَشْرَ الفَسادِ فى الأَرْضِ ، لأنَّ ما عِنْدَ اللهِ هوَ خيْرٌ لهُمْ وأبْقَى مِمَّا عِنْدهُمْ فى هذه الحَياةِ الدُّنيا ..


لا إله إلا الله

وطالَبَهُمْ شُعَيْبٌ عليه السلام أنْ يُراعُوا أُمُورَ الْعَدْلِ والأَمَانَةِ ، ويَلْتزِمُوا بالشَّرَفِ والنَّزاهَةِ ، وطَهَارَةِ الْقَلبِ والْيَدِ واللسانِ ، فى تَعَامُلِهِمْ معَ الآخَرِينَ ..

وحَذَّر شُعَيْبٌ عليه السلام قَوْمَهُ مِنْ ظُلْمِ النَّاسِ ، لأَنّ ظُلْمَ النَّاسِ سَوْفَ يَنْعَكسُ عليْهِمْ هُمْ أيضًا ، حَيْثُ تَشِيعُ الْفَوْضَى ، ويَعُمُّ الظُّلْمُ والاضْطِرابُ ، ويتعَامَلُ النَّاسُ بِشَرِيعَةِ الْغَابِ ..

ثمَّ نَصَحهُمْ قائلًا :

ـ إِنَّنى لا أَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللهِ شيْئًا .. أنا لَسْتُ مُوَكَّلًا عليْكُمْ ، ولَسْتُ حَفِيظًا ولا حارِسًا عليْكُمْ .. إنَّما أنا رسُولُ رَبِّ الْعالَمينَ إِلَيْكُمْ ، لأُبلغكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى ..

وهكَذا بَلَّغَ شُعَيْبٌ عليه السلام رسالَةَ اللهِ التى تَدْعُو إِلىَ التَّوْحِيدِ ، وإِلى الْعَدْلِ ، والإِحْسَان إِلى النَّاس ، وعَدَمِ بَخْسِهِمْ أَشْيَاءَهُم ، أوْ إِنْقاصِهِم حُقُوقَهُمْ ، إِلى قَوْمِه مِنْ أهْلِ مَدْيَنَ ..

فماذا كانَ جَوَابُ قَوْمِه عليْه ؟

لقَدْ رَدَّ أَهْلُ مَدْيَنَ على نَبِيِّهِمْ بسُخْرِيَةٍ وتَهكُّمٍ ، فقالوا لهُ :

ـ ما هَذا الَّذى تَقُولُ يا شُعَيْبُ ؟! هلْ صَلاَتُكَ تأمُرُكَ أنْ تَدْعونا إِلى أَنْ نَتْرُكَ ماكَانَ يعْبُدُ آباؤُنَا ، لنَعْبُدَ إِلَهَكَ الذى تدْعُونَا إِلَيْه ؟! هلْ صَلاتُك تنْهَانا أنْ نعْبُدَ الأَشْجارَ والنَّبَاتَات ، الَّتى كانَ يَعْبُدُها آباؤُنا ؟! هلْ صَلاتك تَأْمُرُكَ أنْ تَتَدَخَّلَ فى حَيَاتِنَا الدُّنْيَا ، وتُطالِبُنَا أَنْ نُغَيِّرَ مِنْ سُلُوكِنَا وعادَاتِنا فى الْبَيْعِ والشِّرَاءِ ؟! مالَكَ أَنْتَ وما شَأْنُكَ إِذا كُنَّا نُرِيدُ أَنْ نُنقِصَ الْكَيْلَ والْمِيزَانَ ؟!

لا يَا شُعَيْبُ .. نحْنُ لا نَظُنُّ أَنَّ صَلاتَكَ تأْمُرُكَ أنْ تتدَخَّلَ فى شُئُونِ حَيَاتنا بهذه الطَّرِيقَةِ ..

ثمَّ أَضافُوا قائِلِين :

ـ نحْنُ أَحْرَارٌ فى الطُّرُقِ الَّتى نكْسِبُ بها أَمْوَالَنَا ، وفى الطُّرُقِ الَّتِى نُنفِقُ فيها هذِه الأَمْوالَ .. سواءٌ أَكانَتْ هذه الطُّرُقُ حلالًا مَشْرُوعَة ، أمْ حرامًا غيْرَ مَشْرُوعةٍ كمَا تدَّعى يا شُعَيْبُ ..



وختموا كلامهم بقولهم :

ـ لوْ كُنْتَ عاقلًا حليمًا رَشيدًا يا شُعَيْبُ ما قُلْتَ لنا هذَا الْكَلامَ ، ولا نَصَحْتَنَا بهذه النَّصَائِح الْمُضْحكَةِ ..

فردَّ عليْهم شُعَيْبٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ ردًّا حليمًا بقَوْلِهِ :

ـ إنَّ ما أُريدُهُ بِدَعْوَتِى لكمْ هُوَ إِصْلاحُ أُمُورِ حياتِكمْ على قَدْرِ ما أَسْتَطِيعُ .. إنَّ رسالَتِى إِلَيْكُمْ هِىَ إِصلاحُ ما فَسَدَ مِنْ أُمُورِ حياتِكُمُ الدُّنْيا ، وإِعْدادُكُمْ إِعْدادًا صالحًا لِلْحَياة الآخِرَةِ ، وهىَ أَبْقَى لكُمْ ، حيْثُ لا يَنْفَعُ هُناك إلا الإِيمانُ والتَّقْوَى والْعَمَلُ الصَّالِحُ ..

وأضاف شُعيْبُ عَلَيْهِ السَّلَامُ ناصحًا :

ـ يا قوْم ، لا يَحْملكُمْ عنادُكُمْ على تكْذِيبى ومُخالَفَتى ، وعصْيان أَمرى ، وعَدَمِ الاسْتماعِ لنُصحِى ، لأنَّ مُخَالَفَةَ الأقْوامِ لأَنْبيائِهِمْ ، وتَكْذيبَهُمْ لَهمْ دائمًا تَنْتَهيانِ بهِمْ نِهايَةً سَيِّئَةً ..

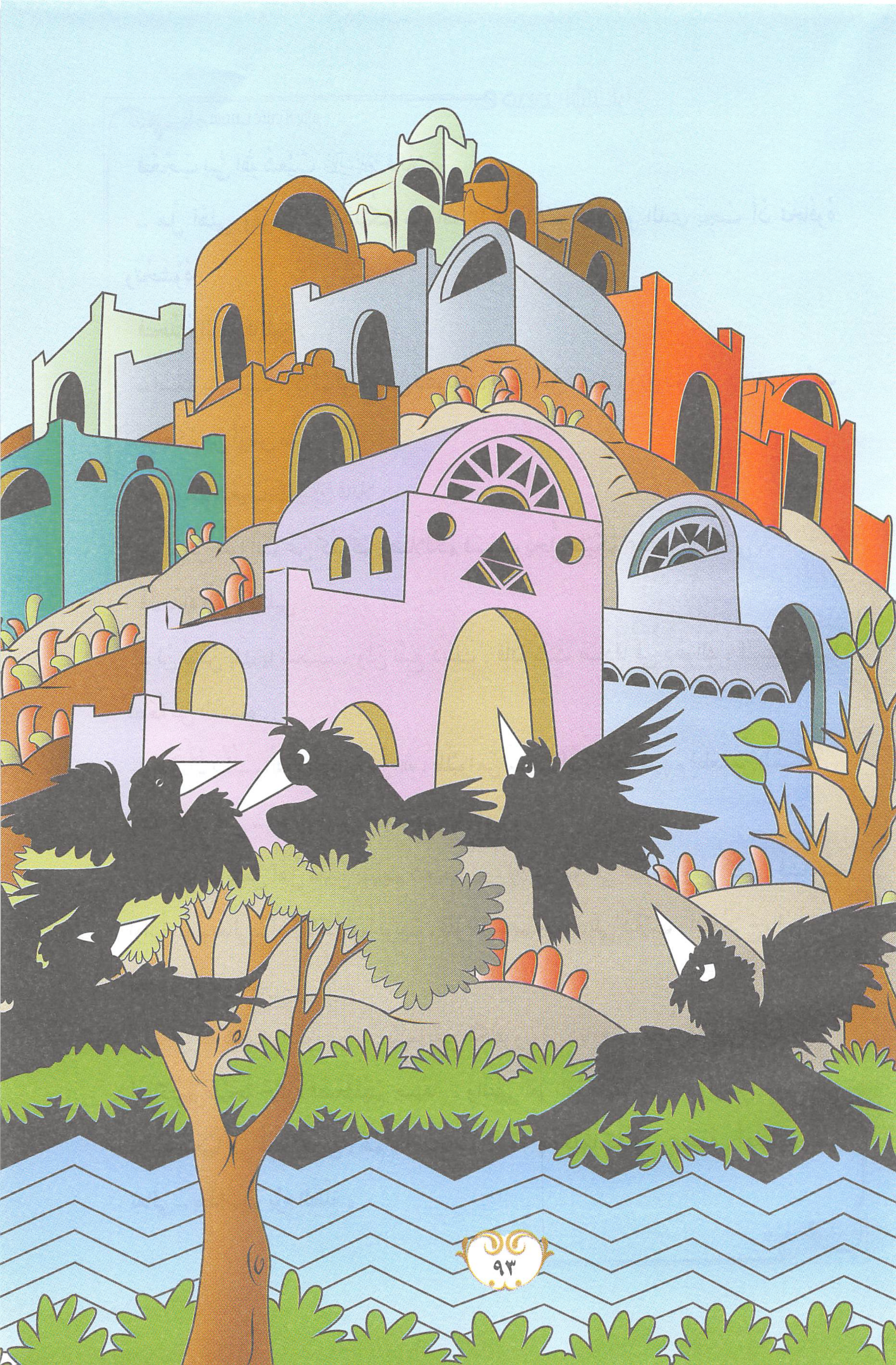
وحَذَّرَهُمْ قائلًا :

ـ قدْ يُصيبُكُمْ مثْلُ ما أَصَابَ قوْمَ نُوحٍ ، أوْ قوْمَ هُودٍ ، أوْ قَوْمَ صَالِحٍ .. لقدِ انْتَهَتْ هذه الأَقْوامُ نِهاياتٍ سَيِّئةً وَأُبِيدُوا مِنَ الأَرْضِ ، نَتيجَةَ مُخَالَفَةِ أنبيائِهِمْ ، وأَعْتقِدُ أَنَّكُمْ تعْرِفون النِّهايَةَ الْمُؤْلمةَ التى انْتَهى إِلَيْهَا قوْمُ لُوط ، لأنَّ زَمانَهُمْ ليْسَ بعيدًا عَنْكُمْ .. يا قَوْم اسْتَغْفروا اللهَ وتوُبُوا إِلَيْه مِنْ ذُنُوبِكُمْ ، وأَعْمالِكُمُ السَّيِّئَةِ ..

فردَّ عليْه الْقَوْمُ قائلين :

ـ يا شُعَيْبُ إِنَّكَ تقُولُ كَلامًا غَيْرَ مَفْهُومٍ .. نحْنُ لا نَفْهَمُ ما تقُولُه .. ثمَّ إِنَّكَ بَشَرٌ مثلُنا ، فَكَيفَ تكونُ نَبِيًّا كما تَزْعُمُ ؟! ثمَّ هدَّدُوهُ قائِلين :

ـ يا شُعَيْبُ إِنَّكَ ضَعيفٌ فِينا ، لَمْ يُؤْمِنْ بكَ إِلاَّ الْفُقَراءُ والضُّعَفاءُ ، ولِذلكَ لنْ تسْتَطيعَ أَنْ تتحدَّانا ، وتَفْرِضَ دَعْوَتَك علَيْنا ، ولوْلا أَهْلُكَ وقوْمُكَ لَقَتَلْناكَ رَجْمًا بالحجارَةِ ، ومَا أَنْتَ علَيْنا بِعَزيزٍ ..



فتعَجَّبَ نبىُّ اللهِ شُعيبٌ عليه السلام قائلًا :

ـ هلْ أَهْلى وقَومِى أعزُّ عليْكُمْ مِنَ اللهِ ؟! إنَّ اللهَ وَحْدَهُ هوَ الذى يَجِبُ أَنْ تخافُوهُ وتَخْشَوْهُ ..

فتَحدَّاهُ القَوْمُ قائِلين :

ـ اسْمَعْ يا شُعيْبُ ، إنْ لمْ ترْجِعْ عنْ دَعْوتِكَ ، أَنْتَ ومَنْ تبِعَكَ ، وتَعُودُوا إلى دِيننا ، فسَوْفَ نُخْرِجُكُمْ مِنْ أَرْضِ مَدْيَنَ ..

فحَذَّرَهُمْ شُعيْبٌ عليه السلام قائِلًا :

إِذَا لَمْ تَرْجِعوا أَنْتُمْ عَنْ كُفرِكُمْ وضَلالِكُم فسَوْف يَحِلُّ عليْكُمْ عَذَابُ اللهِ تعالَى ..

فتَحدَّاهُ الْقَوْمُ قائِلينَ :

ـ لنْ نُؤمِنَ بكَ يا شُعيْبُ ، ولنْ نَتَّبِعَ دينَكَ ، فإنْ كُنْتَ صَادِقًا فى دَعْواكَ ، فأَسْقطْ علَيْنَا قِطْعَةً مِنَ السَّماءِ ..

وبَدلَ أَنْ يَطْلُبَ الْقَوْمُ الْهِدايَةَ مِنَ اللهِ ، طَلَبُوا مِنَ شُعَيْبَ أنْ يُسْقِطَ علَيْهم قِطْعَةً مِنَ السَّماءِ .. وهذا يدُلُّ على شِدَّةِ جَهْلِهم وحَماقَتِهم وغَبائِهِمْ ..

وهكَذا لَمْ يُؤْمِنْ أهلُ مَدْيَنَ بنبيِّهم شُعَيْبٍ عليه السلام وزَادُوا فى كُفْرِهِمْ وضَلالِهِمْ ، فشَاءَتْ إرادَةُ اللهِ ـ تعالى ـ أَنْ يُهْلِكَهُمْ بِذُنوبهمْ ، فأَوْحَى ـ سُبْحَانهُ ـ إلى شُعَيْبٍ ، أَنْ يَخْرُجَ بالْمُؤْمِنين مَعَه مِن أَرْضِ مَدْيَنَ ..

ونجَّى اللهُ شُعَيبًا والْمُؤْمنين به ، بَيْنَما بَقِىَ الْكَافِرونَ فى دِيارِهِمْ ، فَحَلَّ علَيْهِمْ عَذابُ اللهِ .. أَدْرَكَتْهُمْ صَيْحَةٌ جَبَّارَةٌ فصَعَقَتْهُمْ جميعًا .. وانْتَهى أَمْرُ الْقَوْمِ الظَّالِمِين .. وأَرْسَلَ اللهُ ـ تعالى ـ نَبِيَّهُ شُعَيْبًا إلى قَوْمٍ آخَرِينَ ، هُمْ « أَصحابُ الأَيْكَةِ » ، فلَمَّا كذَّبُوهُ وعَصَوْهُ ، أَهْلَكَهُمُ اللهُ ـ تعالَى ـ بعَذَابِ « يَوْمِ الظُّلَّةِ » ..



أَرْسَلَ اللهُ تعالَى ـ علَيْهِمُ الْحَرَّ الشَّدِيدَ ، ويُقَالُ : إِنَّ مَوْجَةَ الْحَرِّ اسْتَمَرَّتْ سَبْعَةَ أَيَّامٍ ، حتّى غَلَتِ الْمِيَاهُ واشْتَدَّتْ حَرَارَتُها ..

فلمّا اشْتَدَّ الْحَرُّ بهِمْ ، دَخَلَ الْقَوْمُ إلى بُيُوتِهِمْ يَحْتَمُونَ بها ، ولكنَّ الْحَرَّ داخلَ الْبُيُوتِ كانَ أَقْوَى وأَشَدَّ قَسْوَةً ، لِدَرَجَةِ أَنَّ الْقَوْمَ ، لَمْ يكُونوا قَادِرِينَ على التَّنَفُّسِ مِنْ شِدَّةِ الْحَرِّ ، فخَرَجَ الْقَوْمُ هَرَبًا مِنَ الْبُيُوتِ، فأَرْسَلَ اللهُ ـ تعالَى ـ إِليهِمْ سَحابَةً فأَسْرَعَ الْقَوْمُ يَحْتَمُونَ تَحْتَها مِنْ وَهَجِ الشَّمْسِ ، وَوَجَدُوا أَنَّ الْجَوَّ تَحْتَها رَطْبٌ وبَارِدٌ ، فَنادى بَعْضُهُمْ بَعْضًا ، حتَّى تَجَمَّعُوا كُلُّهُمْ تَحْتَ السَّحَابَةِ ..

وأَرْسَلَ اللهُ ـ تعالَى ـ علَيْهِمْ مِنَ السَّحَابَةِ نارًا ، فأَحْرَقَتْهُمْ جميعًا .. أَمْطَرَتِ السَّحَابَةُ بِقُدْرَةِ اللهِ ـ تعالَى ـ نِيرَانًا ، بَدَلَ أَنْ تُمْطِرَ مَاءً ..

وهكذا أَهْلَكَ اللهُ « أَصْحَابَ الأَيْكَةِ » كما أَهْلَكَ أَهْلَ مَدْيَنَ ، بكُفْرِهِمْ وتَكْذِيبِهِمْ شُعَيْبًا عليه السلام ..

تَمَّتْ



قصص الأنبيــاء

أيوب عليه السلام



قصَّةُ نبيِّ اللهِ أيُّوب عَلَيْهِ السَّلَامُ هى مِنْ أَعْظَمِ الْقِصَصِ ، الَّتى تُبيِّنُ فَضِيلَةَ الصَّبْرِ ، على ابْتِلاءِ اللهِ - تعالَى - لِعبَادِهِ ، وَرِضاهُمْ بِابْتِلائِه ، والصَّبْر علَى قَضَائِهِ .. كما تُبيِّنُ جَزاءَ الصَّابِرِينَ عنْدَ اللهِ - تعالَى - فى الدُّنْيا والآخرَةِ ..

فى الدُّنْيا يُعَوِّضُ اللهُ - تعالَى - الصَّابرين ، أَضْعَاف أَضْعَافِ ما سَلَبهُمْ مِنَ النِّعَمِ ..

وفى الآخِرةِ يُوَفِّى اللهُ الصَّابرينَ أُجُورَهُمْ بغير حِساب .. ولَكِنْ قَليلٌ مِنْ عِبادِ اللهِ الصَّابِرُونَ ، وأَقَلُّ مِنهم الشَّاكرونَ .. وقدْ كانَ نبيُّ اللهِ أَيُّوبُ عَلَيْهِ السَّلَامُ واحِدًا مِنْ هذه الْقِلَّةِ الصَّابِرَةِ الشَّاكِرَةِ ..

ابْتَلاه اللهُ - تعالَى - فى أَهْلِهِ ومَالِه وصِحَّتِه ، لكنَّهُ صَبرَ لِقَضاءِ اللهِ ورَضِىَ بِحُكْمِهِ ، فكانَ جَزاؤُهُ جزاءَ الصَّابرينَ فى الدُّنْيا والآخِرةِ ..

وقدْ أَثْنَى اللهُ - تعالَى - علَى عَبْدِهِ ونَبيِّه أَيُّوب عَلَيْهِ السَّلَامُ فَمَدَحَهُ فى الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ بقَوْلِه :

﴿ إِنَّا وجَدْنَاهُ صابِرًا نعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾

ويَكْفِى أَنَّ نبىَّ اللهِ أَيُّوب عَلَيْهِ السَّلَامُ قدْ صَارَ بِصَبْرِهِ ، وتَقْوَاهُ مَثَلًا يَضْرِبُهُ النَّاسُ فى الصَّبْرِ ..

ولكِنْ ما هِىَ قِصَّةُ أَيُّوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ومَا هِىَ قِصَّةُ ابْتِلاءِ اللهِ - تعالَى - لهُ ، وصَبْرِه علَى قَضاءِ اللهِ ؟

كانَ أَيُّوبُ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَبْدًا منْ عِبادِ اللهِ الصَّالِحِين ، وقدْ آتاهُ اللهُ - تعالَى - الصِّحَّةَ ، والْقُوَّةَ ..

وآتاهُ مِنَ الأَمْوالِ والْمَواشِى والإِبِلِ والْغَنَم الْكَثير والْكَثيرَ ، فكانَ أَغْنى أَهْلِ زَمانِه ..

وكَانتْ لهُ زَوْجَةٌ صَالِحَةٌ تَقِيَّةٌ ، أَنْجَبَ مِنها عدَدًا مِنَ الأَبْناءِ والْبَناتِ .. فكانَتْ هى وأَبْناؤُه قُرَّةَ عَيْنٍ لَهُ ..

وكَانَ لأَيُّوبَ أَهْلٌ وأَصْدِقَاءُ يأْنسُ بصُحْبَتِهِمْ ، وكَانُوا يُحِبُّونَهُ حُبًّا كَبيرًا ..





بِاخْتِصارٍ ، أَنْعَمَ اللهُ ـ تعالَى ـ على عَبْدِه أَيُّوبَ بكلِ النِّعَمِ الّتى يُحِبُّها الْبَشَرُ ، ويَتَمَنَّى كُلُّ وَاحِد منْهُمْ لَوْكَانت عنْدَهُ نِعْمَةٌ أَوْ أَكْثَرُ من هذه النِّعَمِ ، فَمَا بَالُكَ لوْ كانَتْ عندَهُ كُلُّ هذه النِّعَمِ : زَوْجَةٌ صَالِحَةٌ ، وأَوْلادٌ نَاجِحُون صَالِحُونَ ، ومالٌ كثيرٌ لا يُعَدُّ ولاَ يُحْصَى وخَدَمٌ وعَبِيدٌ ، وأَهْلٌ وأَصْدِقاءُ ..

كلُّ هَذا كانَ عنْدَ أَيُّوب عَلَيْهِ السَّلَامُ وكانَ عِنْده ما هُوَ أَهَمُّ مِن ذلك كِله ، وَهُوَ نعمةُ التَّقْوى والْهِدايَة .. وَقَدْ كانَ أَيُّوبُ عَلَيْهِ السَّلَامُ شاكرًا لِنِعَمِ اللهِ الْكثيرةِ عليْه .. وكانَ أَهْلُ زَمَانِه يَحْسُدُونَهُ على كُلِّ هذه النِّعَمِ الّتى أَنْعَمَ الله بها علَيْه ..

وقَدْ كانَ أَيُّوبُ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَكْثَرَ أَهْلِ زَمانِه عِبادَةً للهِ ، وأَكْثَرَهُمْ شُكْرًا لله ..

وقَدْ حَسَد الشَّيْطَانُ أَيُّوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِسَبَبِ تَقْواهُ وعِبادَتِه وشُكْرِه لله ..

فالشَّيْطانُ عَدُوُّ الإِنْسانِ ، ولِذلك فهوَ يَكْرَهُ الإِنْسَانَ ، ويكْرَهُ عَلَى الأَخصِّ الإِنْسَانَ الْمؤمِنَ التَّقِىَّ ، ويكْرَهُ الأَنْبياءَ أَكْثَرَ ، لأَنَّهُمْ أَكْثَرُ عِبادِ اللهِ حبًّا لِله ، وتَقْوى لِله.. ولِذلك حَسَدَهُ الشَّيْطانُ ..

ويُقَالُ : إِنَّ ملائِكَةَ الأَرْضِ تحدَّثُوا فيمَا بَيْنَهُمْ ، عَنِ الْبَشَر ، وأَكْثَرِهم عِبادَةً لله ، وتَقْوى واسْتِقامَةً ، فقالَ بَعْضُهمْ :

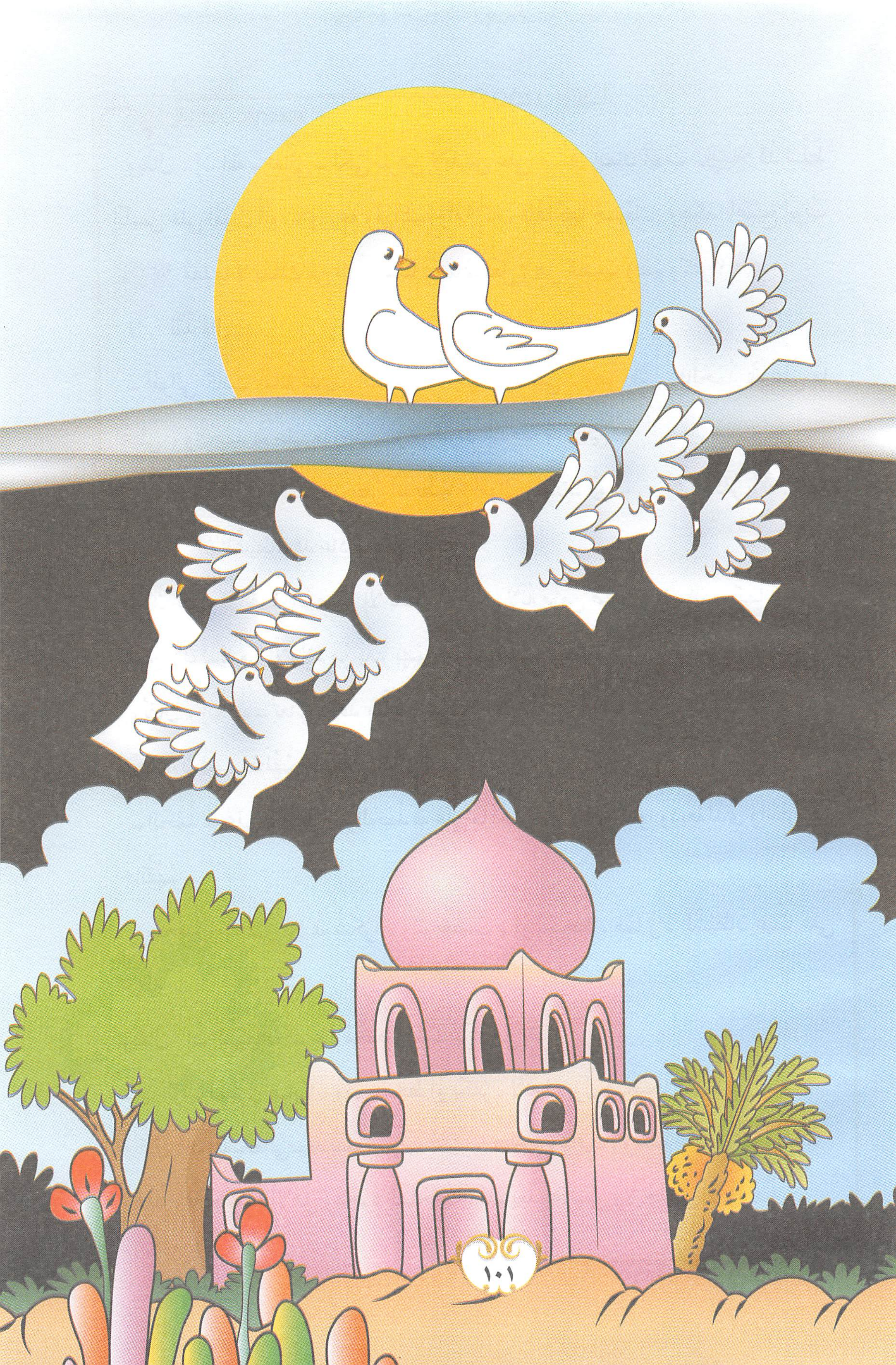
ـ إِنَّ أَيُّوبَ هو أَكْثَرُ النَّاسِ عبادَةً لِله ، وأَكْثَرُ إِيمانًا وشُكْرًا لِنعَمِ اللهِ علَيْه ..

ويُقَالُ : إِنَّ الشَّيْطانَ قدْ سَمِعَ حَديثَهُمْ ، فذَهَب إِلى أَيوبَ مُحَاوِلاً إِغْواءَهُ ، حتَّى يُبْعِدَهُ عَنْ ذكْرِ اللهِ وشُكْرِه ، لَكِنَّهُ فشلَ ، فخاطَبَ اللهَ قائلًا :

ـ إِنَّ أَيُّوبَ لا يَعْبُدُكَ ويَشْكُرُكَ ، حُبًّا فيكَ ، ولكنَّهُ يَعْبُدُك حتّى تحفظَ علَيْهِ نِعَمَهُ الْكَثيرَةَ ، الّتى أَنْعَمْتَ بها علَيْه ..

ويُقَالُ : إِنَّ اللهَ ـ تعالَى ـ قدْ خاطَبَ الشَّيْطانَ قائِلًا :

ـ إِنَّ عَبْدِى أَيُّوبَ عَبْدٌ مُؤمِنٌ صادِقُ الإِيمانِ ، وهُوَ يَعْبُدُنى لِذاتى ..



ويُقَالُ : إِنَّ اللهَ ـ تعالَى ـ لِكَيْ يُبَرْهِنَ لإِبْليسَ على صِدْقِ إيمان أَيُّوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَدْ سَلَّطَ إِبْلِيسَ عَلَى أَمْوالِ أَيُّوبَ وزَرْعِهِ ومَوَاشِيهِ وأَمْلاكِهِ ، فأَهْلَكَها جميعًا .. وهكَذَا أَصْبَحَ أَيُّوبُ عَلَيْهِ السَّلَامُ مُعْدمًا لا يمْلكُ مِنَ الدُّنْيا شيْئًا ، فماذا فعَلَ ؟ هلْ غضِبَ ونَقِمَ وكفَرَ ؟

لا .. لقَدَ قالَ :

ـ أَمْوالى كَانَتْ أَمَانَةً لَدَىَّ واسْتَردَّها مالكُهَا الْحَقِيقىُّ ، وهو اللهُ .. فالْحَمْدُ للهِ على مَا أَعْطَى ، والْحَمْدُ للهِ على مَا أَخذَ .. وخرَّ أَيُّوبُ سَاجدًا للهِ تعالى ..

واغْتَاظَ الشَّيْطانُ ، فقدْ كانَ يظُنُّ أَنَّهُ بِضَيَاعِ أَمْوالِ وأَمْلاكِ أَيُّوبَ ، سَوْفَ يَكْفُرُ بِاللهِ ..

ويُقَالُ : إِنَّ الشَّيْطانُ قَدْ عادَ مُخاطبًا للهِ بقَوْلِه :

ـ إِنَّ أَيُّوبَ لَمْ يُقابِلِ الْمُصيبَةَ إِلاَّ بالصَّبْرِ ، لَيْسَ لأَنَّهُ مُؤْمِنٌ صادقُ الإِيمانِ – كَمَا يَزْعُمُ – ولكِنْ لأَنَّ لَديْه مِنَ الأَوْلادِ مَنْ يَعْتَزُّ بهمْ ، ويأْمُلُ أَنْ يسْتَرِدَّ بِهِمْ ثَرْوَتَه الضَّائعَةَ ..

ويُقَالُ : إِنَّ اللهَ ـ تعالَى ـ قَدْ سَلَّطَ الشَّيْطانَ على أَوْلادِ أَيُّوبَ فزَلْزَلَ عليْهِمُ الْبَيْتَ وهُمْ مُجْتَمعونَ فِيه ، فَقَتلَهُمْ جميعًا .. فقالَ أَيُّوبُ داعِيًا رَبَّهُ :

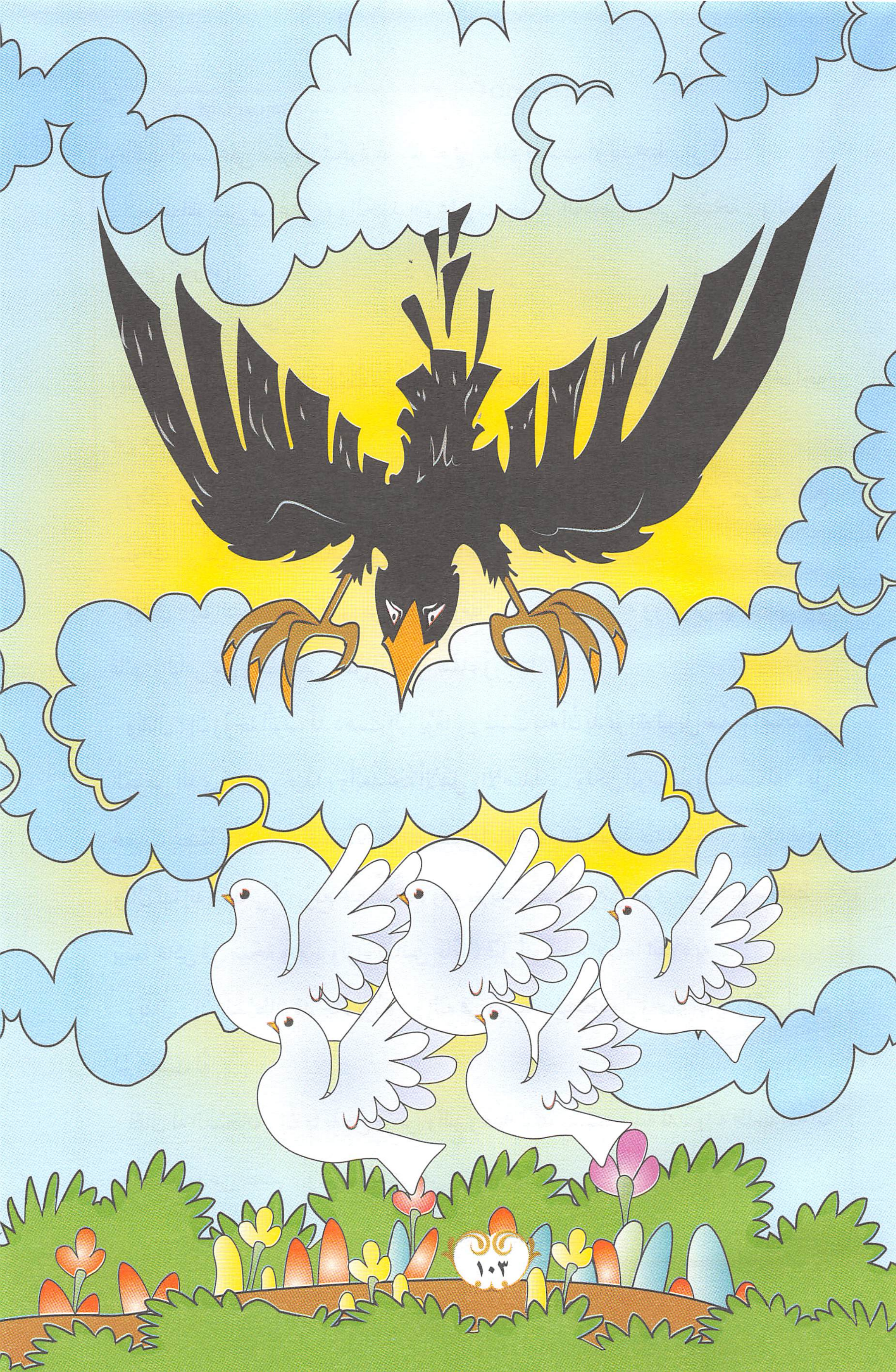
ـ الْحَمْدُ للهِ على مَا أَعْطَى ، والْحَمْدُ للهِ علَى مَا أَخذَ .. أَوْلادى كَانُوا وديعَةً لَدَىَّ واسْتَرَدَّهُمْ خالقُهُمْ ..

وسَجد أَيُّوبُ عَلَيْهِ السَّلَامُ للهِ شُكْرًا ، ولَمْ يَغْضَبْ ، أَوْ يَسْخَطْ ، مِمَّا زَادَ الشَّيْطانَ غَيْظًا على غَيْظه ..

ويُقال : إِنَّ الشَّيْطانَ قَدْ عَادَ مُخَاطِبًا اللهَ ـ عزَّ وجَلَّ بقَوْله :

ـ إِنَّ أَيُّوبَ لَمْ يَزَلْ صابرًا ، ولَمْ يَسْخَطْ أَوْ يكْفُرْ ، لأَنَّهُ لم يَزلْ صَحيحًا سَليمًا فى بَدنه ..

ويُقال : إِنَّ اللهَ ـ تعالى ـ قَدْ سَلَبَ أَيُّوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ صِحَّتَهُ وعَافِيَتَهُ ، وسلَّطَ علَيْه مَرضًا ، أَقْعَدَهُ ، وهَدَّهُ ، فابْتَعَدَ عنْهُ الأَهْلُ وهَجرَهُ الصِّحابُ ، فَلَمْ يعُدْ لهُ أَنِيسٌ ولا جَلِيسٌ إِلا زَوْجَتَهُ ..



ومكثَ أيُّوبُ على صَبْره وشُكْرِه لله ـ لله تعالَى ـ فلَمْ يغْضَبْ أوْ يَسْخطْ ، بلْ قَالَ :

ـ الْحَمْدُ الله علَى مَا أَعْطَى ، والْحَمْدُ الله على مَا أَخَذَ .. الْحَمْدُ لله علَى الصِّحَّةِ ، والْحَمْدُ لله على الْمَرَضِ ..

والشُّكْرُ لله فى كُلِّ حَالٍ ..

ويُقَالُ : إنَّ الشَّيْطانَ قدْ زادَ غَيْظُهُ مِنْ أيُّوبَ وحِقْدُهُ عليْه ، بعْدَ أنْ فشَلَ فى إغْوائِهِ ، وإخْراجِه عَنْ صَبْره وإيمانِه ..

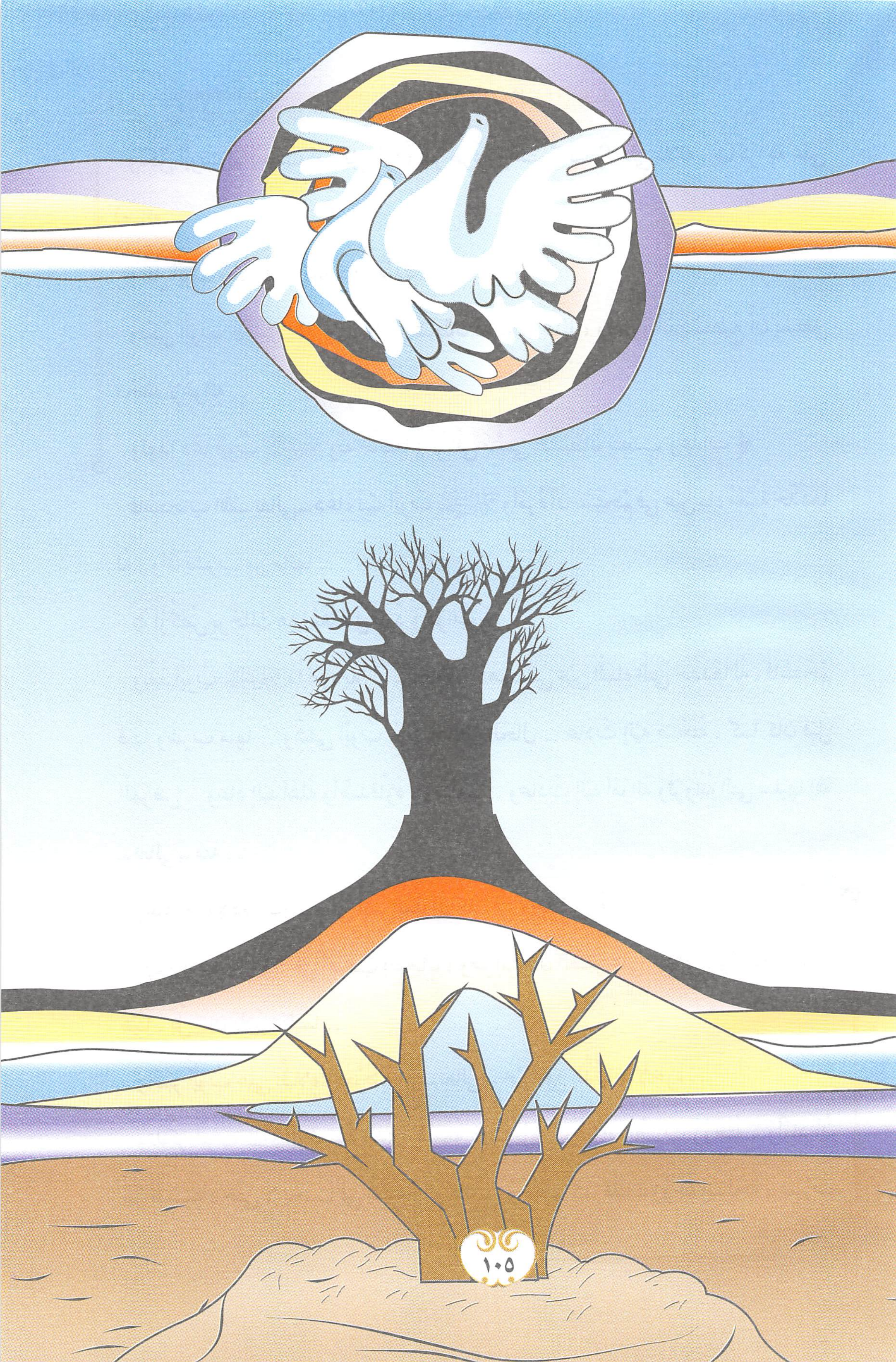
وطالَ مَرَضُ أيُّوب عليه السلام ، مَرَّتْ سَنَةٌ وراءَ سَنةٍ ، حتى بَلَغَ أيُّوب فى مَرَضِهِ سَبْعَ سَنواتٍ .. كُلُّ هذا وهُوَ صَابِرٌ علَى بَلائِهِ ، رَاضٍ بِحُكْمِه وقَضَائِهِ ..

ويُقَالُ : إنَّ الشَّيْطانَ لَّما يَئِسَ مَنْ إغْواءِ أيُّوبَ ، ذَهبَ إلى زَوْجَتِه وَوَسْوسَ لها ، حتَّى مَلأَ قَلبَها بالْيأْسِ مِنْ رحْمَةِ الله ، ومِنْ إمْكَانيَّةِ شِفاءِ زَوْجِهَا ..

ويُقَالُ : إنَّ زوْجَةَ أيُّوبَ قَدْ ذهبَتْ إلَيْه يوْمًا ، وطلَبتْ مِنهُ أنْ يَدْعُوَ الله لِيُزيلَ عَنْهُ مَا أصابَهُ مِنَ الْمَرضِ الَّذى أَقْعَدَهُ وحِيدًا ، وأبْعَدَ عَنْهُ الْأَهْلَ والْأَصْدقَاءَ ، ولكنَّ أيُّوبَ لمْ يَسْتَجِبْ لها ، بل غَضِبَ غضَبًا شَديدًا ، وأَقْسَمَ أنَّهُ سَوْفَ يَضْرِبُها بالْعَصا مِائةَ ضَرْبَةٍ عنْدَما يُكْتَبُ لهُ الشِّفاءُ ، وقالَ لها إنَّهُ يسْتَحِى أنْ يُرفَعَ عَنه الْبلاءُ ، وهُو لَمْ يَقْضِ فى الْمَرضِ سِوَى سَبْعِ سَنَوَاتٍ فَقَطْ ، بيْنَما عاشَ فى صِحَّةٍ ونَعِيمٍ وَثراءٍ ثَمَانِينَ عَامًا ، قبْلَ أنْ يَبْتليَهُ اللهُ بما ابْتلاه بِهِ ..

ويُقَالُ : إنَّ الشَّيْطَانَ قدْ جاءَ يُوَسْوِسُ إلَيْه فى مَرَضِهِ ، لِيُقنطَهُ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ ، ولكنَّ أيُّوبَ لمْ يُنْصِتْ لَهُ ..

فقالَ لَهُ الشَّيْطانُ : إنَّ ما بهِ مِنْ مَرَضٍ وأَلَمٍ وعذَابٍ هو بِسَبَبِ مَسِّهِ لَهُ ، وإنَّه طلبَ منْهُ أنْ يتوَقَّفَ يوْمًا عَنِ الصَّبْرِ ، وسَوْفَ يُشْفَى مِنْ مَرَضه ..



ولكنَّ أيُّوبَ لمْ يُنصِتْ لَهُ ، بلْ طَرَدَهُ شرَّ طرْدَةٍ واستمرَّ صابرًا على بلائِه ، شاكرًا للهِ على قضَائِه ..

وظَلَّ أيُّوبُ يَعْبُدُ اللهَ ، كما كانَ يَعْبُدُهُ ..

ولكنَّ أيُّوبَ عليه السلام قدْ حَزِنَ لأنَّ الشَّيْطانَ قدْ تجرَّأَ عليْه ، وتصوَّرَ أنَّهُ يسْتَطيعُ أنْ يَسْتَغِلَّ مِحْنَتَهُ لإغْوائِه ..

ولهذا دعَا أيُّوبُ عليه السلام ربَّهُ خاشِعًا : ﴿ أنِّى مَسَّنِىَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وعَذَابٍ ﴾

فاسْتَجابَ اللهُ ـ تعالَى ـ دُعاءَ نبيِّه أيُّوبَ عليه السلام وأمرَهُ أنْ يَسْتَحِمَّ فى عيْنِ ماءٍ مُعيَّنَةٍ حدَّدَها لَهُ ، وأنْ يَشْرَبَ مِنْ مائِها ..

﴿ ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴾

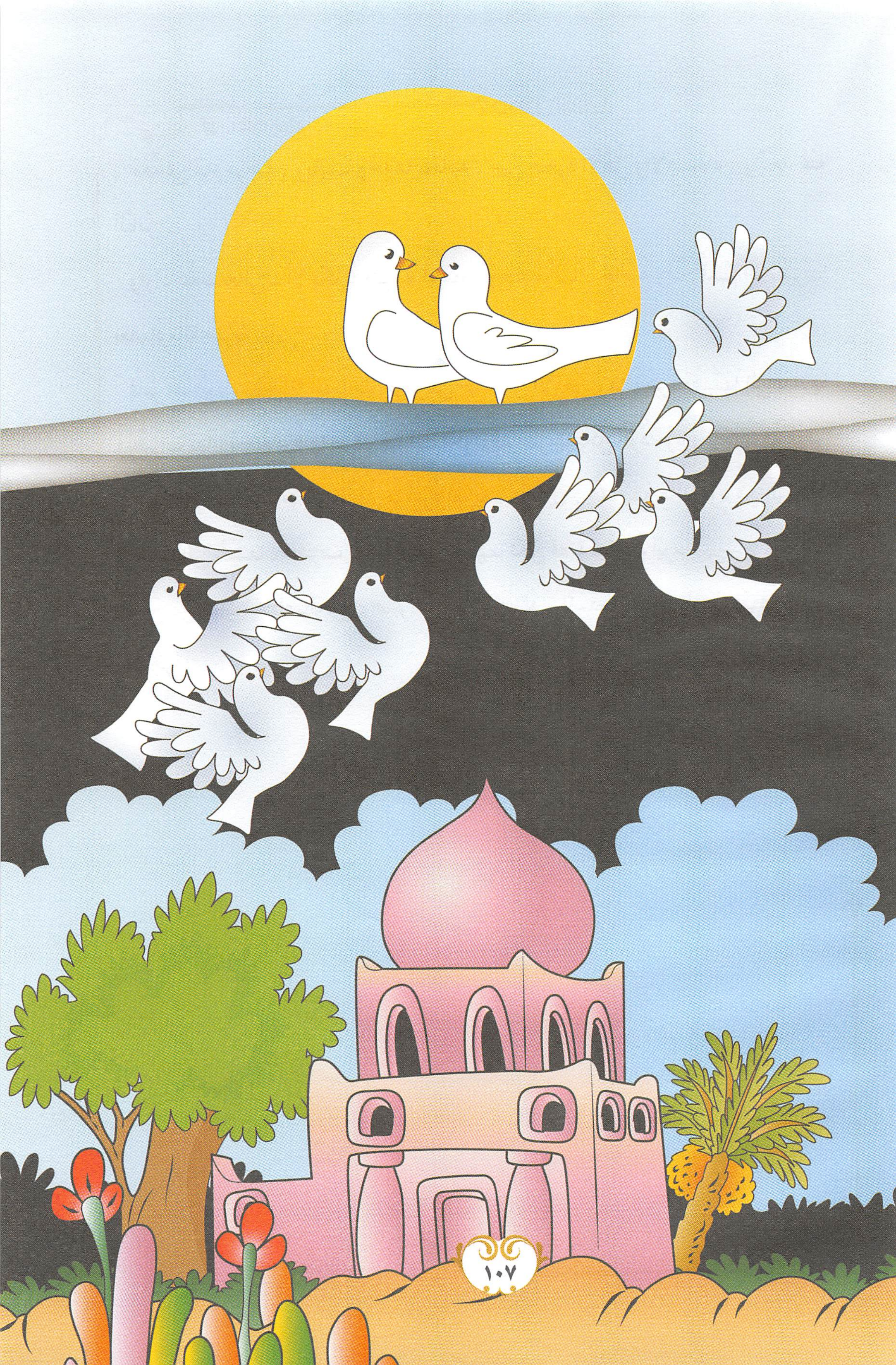
ونفَّذَ أيُّوبُ عليه السلام ما أمَرَهُ بِهِ ربُّهُ سُبْحانَهُ .. ذهبَ إِلَى عيْنِ الْمَاءِ الَّتى حدَّدَها لهُ ، فاسْتَحَمَّ فِيها وشَرِبَ مِنْها .. وشُفِىَ أيُّوبُ عليه السلام فى الْحَال .. عادَتْ إلَيْه صِحَّتُهُ ، كما كانَ قبْلَ الْمَرَضِ .. وعادَ إلَيْه أهْلُهُ وَأصْدقَاؤُهُ ، ومِثْلُهُمْ .. وعادَتْ إليْهِ أمْوالُهُ وثَرْوَاتُهُ الَّتى سَلَبَها اللهُ ـ تعالَى ـ منْه ..

وعادَ لهُ أوْلادُه ، فأَصْبحَ فى أُنْسٍ بعْدَ أنْ كانَ فى وَحْدَةٍ وَوَحْشَةٍ ..

نَجحَ أيُّوبُ عليه السلام فى أَصْعَبِ امْتِحانٍ ، وهو امْتِحان الصَّبْرِ على الْبلاءِ .. ولَمْ يكُنْ بلاؤهُ هَيِّنًا ، بلْ كانَ بَلاءً عظِيمًا ..

وصَبرَ أيُّوبُ على الْبَلاءِ ، فعوَّضَهُ اللهُ ـ تعالَى ـ خيرًا فى الدُّنيا والآخِرَةِ ..

وتذكَّرَ أيُّوب عليه السلام قَسَمَهُ الَّذى أقْسَمَهُ ذات يَوْمٍ ، وهو أنْ يَضْرِبَ زَوْجَتَهُ ، وَأرَادَ أنْ يَبرَّ بِقَسَمِهِ ، حتَّى لا يَحْنَثَ فى يَمِينِهِ .. وكانَتْ زَوْجَتُه ـ كما قُلْنَا ـ زَوْجَةً صَالِحَةً ، صَبَرَتْ

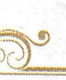


مَعَهُ فى أيَّام مَرَضِهِ ، وبَقِيَتْ وحْدَها بجَانِبِه ، حينَ هَجَرَهُ الأهْلُ والأصْدقَاءُ ، وابْتَعَدَ عَنْه النَّاسُ ..

وأرادَ اللهُ - تعالَى - ألا يكُون ضَرْبُ أيُّوب لزَوْجَتِه مُؤلِمًا ، خاصَّةً وأنَّهُ أقْسَمَ أنْ يضْرِبَها بعَصاهُ مِائَةَ ضَرْبَة ..

فأمَر اللهُ أيُّوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أنْ يأْخذَ حُزْمَةً مِنْ حَشَائِشِ الأرْضِ ، مِائَةَ عُودٍ يَضُمُّها إلى بَعْضِها ويَضْربَ بَها زَوْجَتهُ مرَّةً واحِدَةً ، فَبِذَلِك يكونُ قَدْ ضَرَبَها بكُلِّ عُودٍ مرَّةً ، فيَكُونُ قدْ أوْفَى بِقَسَمِهِ وضَرَبَها مائَةَ مَرَّةٍ .. فَفَعَلَ ما أمَرَهُ اللهُ به .. ويُقالُ : إنَّهُ جمَعَ مِائَةَ عُودٍ مِنَ الرَّيْحانِ وضَمَّها إلَى بَعْضها ، فضَربَ بها زَوْجَتَهُ .. ومَهْما تكُنْ قِصَّةُ نَبيِّ الله أيُّوب عَلَيْهِ السَّلَامُ فإنَّهُ عَبْدٌ صَالِحٌ مِنْ عِبادِ اللهِ الصَّالحينَ ، صَبَرَ علَى بَلاء اللهِ لَهُ ، فاسْتَحقَّ جزَاءَ الصَّابرينَ فى الدُّنْيا والآخِرةِ ..

تَمَّـتْ



قصص الأنبياء

يونس عليه السلام





ذُو النُّونِ .. أَوْ يُونَانُ .. أَوْ يُونُس بْنُ مَتَّى .. هذه كُلُّها أَسْماءٌ لِنَبِيٍّ واحِدٍ ، هوَ نبيُّ الله يُونُس عليه السلام ..

وقدْ أَرْسَلَ اللهُ ـ تعالى ـ نبيَّهُ يُونُس عليه السلام إلى قَوْمِهِ فأخذَ يدْعُوهُمْ إِلَى عِبادَةِ الله ، ويأمُرُهُمْ بالْمَعْروفِ ويَنْهاهمْ عَنِ الْمُنكرِ ..

وظَلَّ يُونُسُ عليه السلام يَدْعو قوْمَهُ مُدَّةً مِنَ الزَّمنِ يَعْلَمُها الله ، فلَمْ يؤْمِنْ بهِ أَحَدٌ ..

وشَعَر نبيُّ الله يونُسُ عليه السلام بالْيَأْسِ مِنْ هِدايةِ قوْمِهِ ، وامْتلأَ قلْبُهُ بالْغَضَبِ عليْهِمْ ، لِعَدَمِ إِيمانِهِمْ باللهِ .. كيْفَ يكُونُ نبيًّا ، ولا يُؤْمِنُ به أَحَدٌ ؟!

هلْ هوَ نبيٌّ بلا أَتْباعٍ أوْ مُؤْمنينَ ؟ !

وَرُبَّما راحَت الأَسْئلَةُ تتدافَعُ فى رأْسِهِ ، حتَّى ضاقَ صَدْرُهُ بعِنادِ قَوْمِهِ وتكْذيبِهِمْ ..

وذاتَ يوْمٍ قرَّرَ يونُس عليه السلام أَمْرًا خَطيرًا .. قرَّرَ أَنْ يَهْجُرَ قَرْيَتَهُ ، ويسافِرَ إِلَى بلَدٍ آخَرَ ، تارِكًا قَوْمَهُ يَتَخبَّطونَ فى ظُلُماتِ الْجَهْلِ والْكُفْرِ والضَّلالِ وما يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ الله تعالَى ..

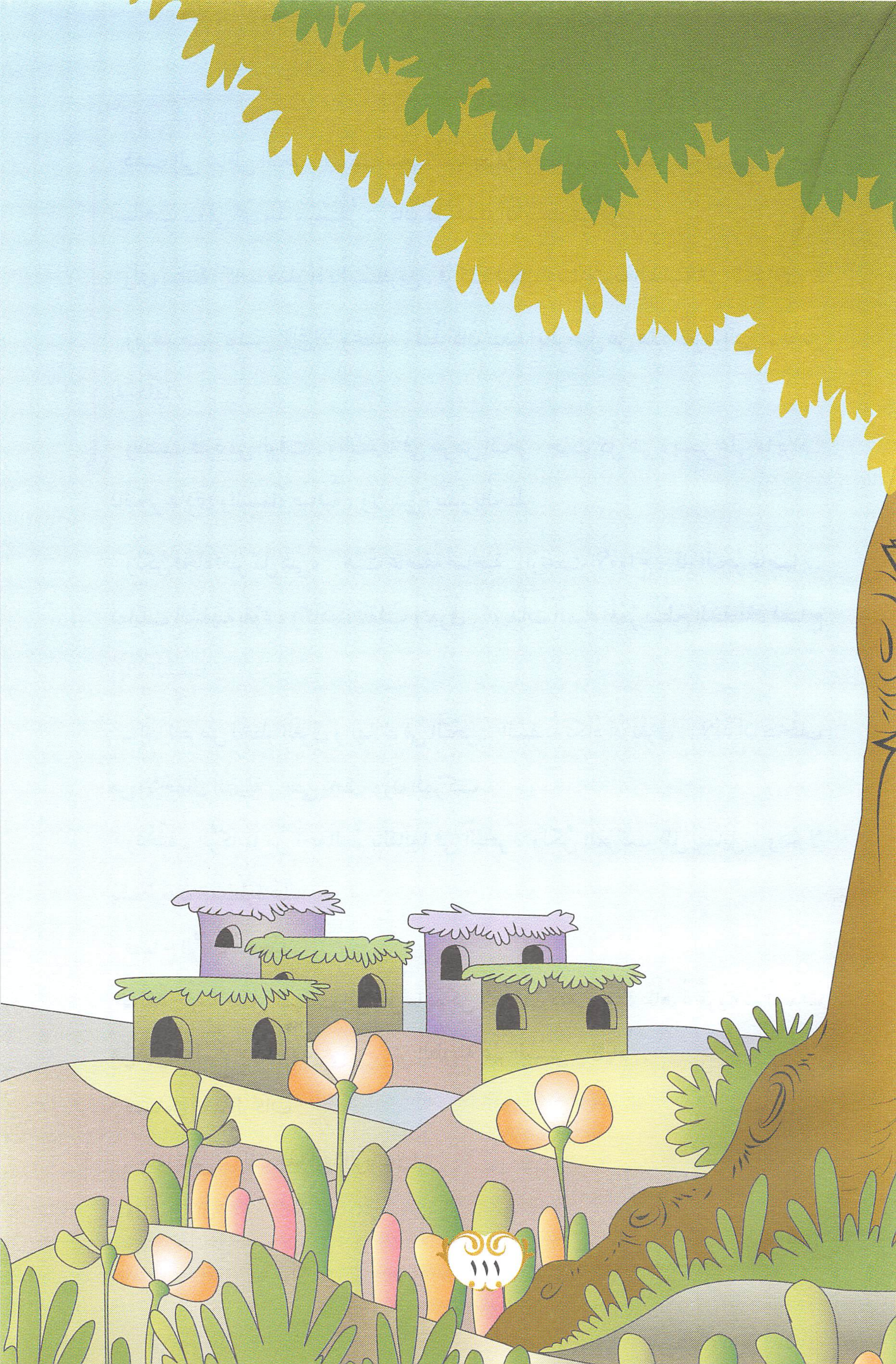
ولَمْ يكُن الأَمْرُ الإِلهِيُّ قدْ صَدَرَ مِنَ اللهِ ـ تعالَى ـ إِلَى يُونُس عليه السلام بِأَنْ يتْرُكَ قَوْمَهُ ، ويَرْحَلَ عنْهُمْ ..

ظَنَّ يُونُسُ عليه السلام فى ثَوْرَةِ غضَبِهِ أَنَّ اللهَ ـ تعالَى ـ لَنْ يُقَدِّرَ عليْه عُقُوبَةً ، لأَنَّهُ ترك قوْمَهُ ورَحَلَ عنْهُمْ يأْسًا مِنْ هِدايَتِهِمْ ..

نَسِي يُونُسُ عليه السلام فى ثَوْرَةِ غَضَبه ، أَنَّ على النَّبيِّ أَنْ يُثابِرَ ، ويَصْبِرَ على دَعْوَةِ قَوْمِه .. أَمَّا أَنْ يُؤْمِنوا ، أَوْ لا يُؤْمِنوا ، فإِنَّ ذلكَ ليْس بِيَدِهِ هوَ ؛ لأَنَّ اللهَ وحْدَهُ يَهْدى مَنْ يَشاءُ ويُضِلُّ مَنْ يشاءُ ، ومَا عَلى الرَّسُولِ إِلا الْبَلاغُ ..

وهكَذا رحَلَ يُونُسُ تارِكًا قَوْمَه ..





ذهبَ إلى شَاطئِ الْبَحْرِ ، لِيَرْكَبَ سَفِينَةً تُقِلُّهُ بَعيدًا عنْ بَلدِه .. لَمْ يكُنْ يَدْرِى إِلَى أىِّ جِهَةٍ سَيذْهَبُ ، وفى أىِّ بَلَدٍ سَيَسْتَقِرُّ .. كان كُلُّ هَدَفِهِ أَنْ يَبْتَعِدَ عنْ قَوْمِهِ ..

رَأى سفِينَةَ رُكَّابٍ مَمْلُوءَةً بالْمُسَافِرينَ ، فَرَكِبَ فيها ، وسارَتْ به السَّفِينَةُ فى الْبَحْرِ ..

وَبرغْمِ ضِيقِ يُونُسَ عليه السلام وغَضَبِهِ ، فقدْ كانَ سَعيدًا بالرَّحيلِ عنْ هذه الْقَرْيَةِ الّتى لَمْ يُؤْمِنْ بِهِ أَهْلُهَا ..

ومضَتْ فَتْرَةٌ مِنَ الْوَقْتِ ، والسَّفِينَةُ فى عُرْضِ الْبَحْرِ ، حيْثُ كلُّ شَىْءٍ يسيرُ على ما يُرَامُ ، فالْبَحْرُ هادِئٌ والسَّماءُ صافِيَةٌ ، ولا شَىْءَ يُنْذِرُ بالْخَطَرِ ..

ولكنْ فجْأَةً تغَيَّرَ كل شَىْءٍ .. هبَّتْ عاصِفَةٌ صاخِبَةٌ .. ارْتَفَعَت الأَمْوَاجُ .. ثارَ الْبَحْرُ غاضِبًا .. تمايَلَتِ السَّفِينَةُ بِقُوَّةٍ ، وكادَتْ تَنْقَلبُ وتَغْرَقُ .. وبَدَأَتِ الْمِياهُ تَغْمُرُ سَطْحَ السَّفِينَةِ ، فصاحَ رُبَّانُ السَّفينَةِ :

ـ إِنَّنا نَتَعَرَّضُ لخطَرِ الْغَرَقِ والْهَلاكِ فى الْبَحْرِ .. السَّفِينَةُ تكادُ أَنْ تَغْرَقَ .. لابُدَّ أَنْ نتخَفَّفَ مِنَ الأَحْمَالِ الثَّقِيلَةِ ، حتّى يَخِفَّ وَزْنُ الْمَرْكَبِ ..

وتَخفَّفَ الرُّكابُ مِنْ أَحْمالهمْ بإِلْقائِها فى الْبَحْر ، ولكنَّ الْمَرْكب ظلَّ يَتمايَلُ ، وهمْ لا يَسْتَطِيعُونَ السَّيْطَرَةَ عَلَيْه ..

فصاحَ الرُّبَّانُ مُتعَجِّبًا :

ـ لقدْ خفَّفْنا حمْلَ الْمَرْكَبِ إِلَى أَقَل ما يُمْكِنُ التَّخَفُّفُ منْهُ .. هذه ظاهِرَةٌ غريبَةٌ لم تَحْدُثْ مِنْ قَبْلُ .. لمْ أَرَ شَيْئًا كهذا فى رِحْلاتى الطَّوِيلَةِ عَبْرَ السِّنين والأَيّامِ ..

فَتساءَلَ أَحَدُ الرُّكَّابِ :

ـ ماذا تَعْنى بِقَوْلِك هذا أَيُّها الرُّبَّانُ ؟ !

فقالَ الرُّبَّانُ :







ـ لا بُدَّ أنَّ هذا الَّذى يحْدُثُ لنا هوَ غضَبٌ وانْتِقامٌ مِنَ اللهِ ..

فصاحَ أحَدُ الرُّكَّاب :

ـ نعمْ .. نعمْ .. لا بُدَّ أنَّ على ظَهْرِ هذه السَّفِينَةِ رَجُلًا خاطِئًا .. رَجُلًا أغْضَبَ اللهَ ـ تعالَى ـ ولذلِك فنَحْنُ نتعَرَّضُ جميعُنا لِلْهلاك بِسَببِهِ ..

فتسَاءَلَ أَحَدُ الرُّكَّاب :

ـ وكيْفَ نتَصرَّفُ ، لِكَىْ نَنْجُو جميعًا مِنَ الْخطَرِ ؟!

فأجابَ الرُّبَّانُ :

ـ نتخلَّصُ مِنْ هذا الْخَاطِئِ ، الَّذى أَغْضَبَ اللهَ تعالَى ..

فتسَاءَلَ أَحَدُهُمْ :

ـ وكيْفَ نَعْرِفُ هذا الشَّخْصَ الْخاطِئ ، الذى نَتَعرَّضُ للْهلاكِ بِسببِهِ ؟!

فَأجابَ الرُّبَّانُ :

ـ سنَقُومُ بعَمَليَّةِ اقْتِراعٍ ، ومَنْ وقَعَتْ علَيْه القُرْعَةُ ، يكونُ هوَ الشَّخْصَ الْمَطْلُوبُ التَّخلُّصُ مِنْه ..

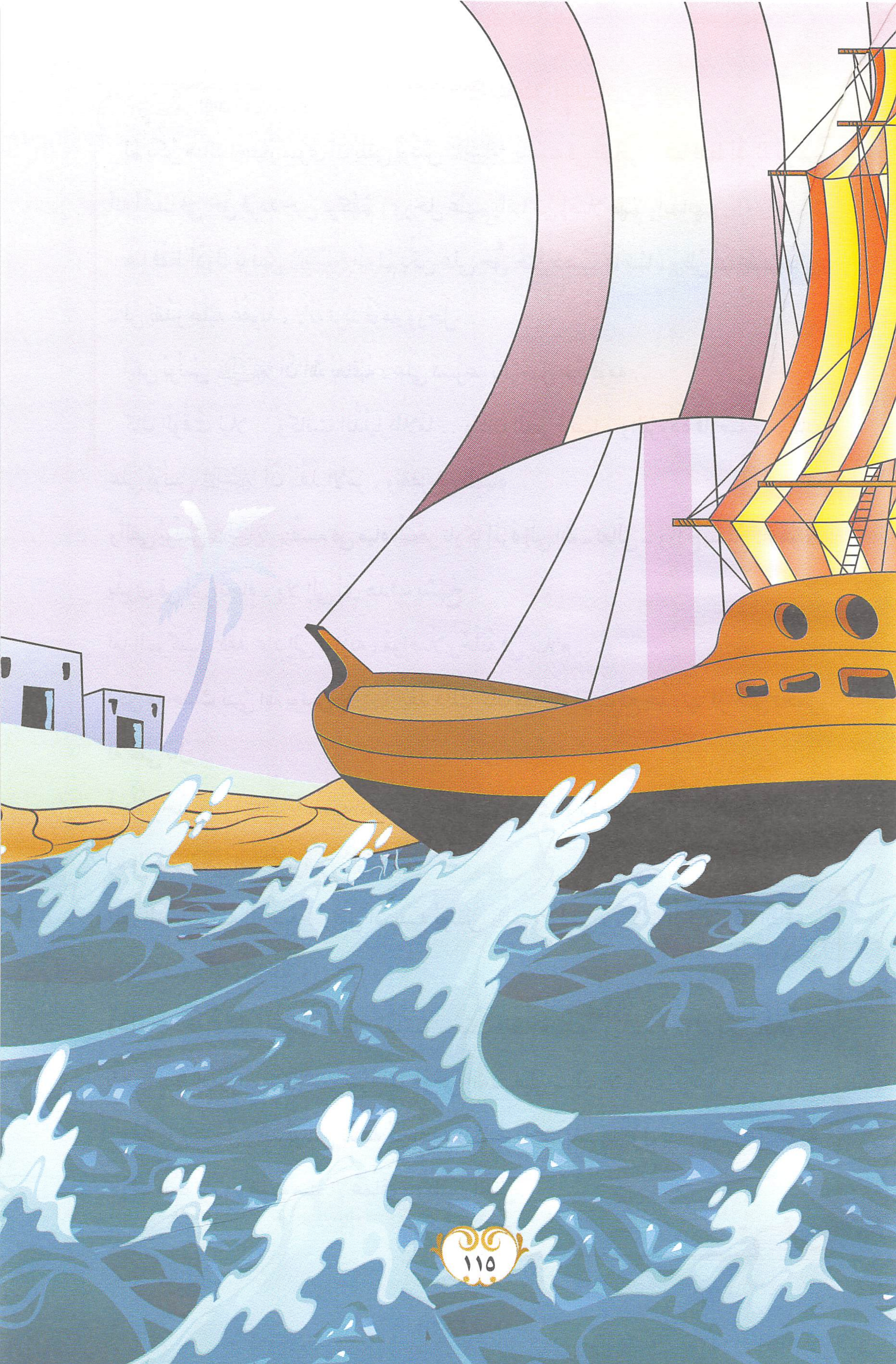
ووافَقَ جميعُ الرُّكَّابِ على إجْراءِ الْقُرْعَة ..

وبدَأَ الرُّبَّانُ يُجرِى عَمَليَّةَ الاقْتِراعِ .. كَتَبَ أَسماءَ جميعِ الأَشْخاصِ الْمَوْجودِينَ على ظَهْرِ الْمَرْكَبِ ومِنْ بيْنِها اسْمُ يُونُس عَلَيْهِ السَّلَامُ ..

وتَمَّتْ عَمليَّةُ سَحْبِ الْقُرْعَة ، فوقَعَتِ الْقُرْعَةُ علَى يُونُس عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وأُعِيدتِ الْقُرْعَةُ لِلْمرَّةِ الثَّانيةِ والثَّالِثَةِ ، وفى كُلِّ مرَّةٍ يخْرُجُ اسْمُ يُونُس عَلَيْهِ السَّلَامُ ..

وهكَذا عَرَفَ الْجميعُ أَنَّ يُونُسَ عَلَيْهِ السَّلَامُ هو الشَّخْصَ الْمَطْلُوبُ أَنْ يُغادِرَ الْمَرْكَب ..

ولكنْ كيْفَ يُغادِرُ يُونُسُ عَلَيْهِ السَّلَامُ الْمَرْكَبَ ، وهُمْ فى عُرْضِ الْبَحْرِ ؟!



لَمْ يكُنْ هناكَ اختيارٌ سِوَى أنْ يُلْقِيَ يُونُسُ عَلَيْهِ السَّلَامُ بنفسِهِ فى الْبَحْرِ .. هنا فقطْ أدْرَكَ يُونُسُ أنهُ أخطَأَ فى حَقِّ قَوْمِهِ حينَ تركَهُمْ ، ورحَلَ عَنْهم يأْسًا مِنْ إِصْلاحِهِمْ وإيمانهم .

هنا فَقَط أدْرَكَ يُونُسُ عَلَيْهِ السَّلَامُ أنَّهُ لَمْ يكُنْ على حَقٍّ حينَ ذهبَ غَاضِبًا ، وظَنَّ أنَّ اللهَ ـ تعالَى ـ لَنْ يُقَدِّرَ عليْهِ عُقُوبةً ، لأَنَّهُ تركَ قَوْمَه ورَحَلَ ..

أيْقَنَ يُونُسُ عَلَيْهِ السَّلَامُ أنَّ اللهَ يُعاقِبُهُ ، على تَسَرُّعِهِ بالرَّحيلِ عَنْ قَوْمِهِ ..

كانَ الْوَقْتُ لَيْلًا .. وكانَت الدُّنيا ظَلامًا .. وكان الْجَوُّ قَاسِيًا ، والْبُرُودَةُ قارِصَةً .. وكانَ علَى يُونُس عَلَيْهِ السَّلَامُ أنْ يُنفِّذَ الأمْرَ ، ويَقفِزَ فى الْمِياهِ ..

وألْقَى يُونُسُ عَلَيْهِ السَّلَامُ بنفسه فى مِياهِ الْبَحْرِ تارِكًا أمْرَهُ إلَى اللهِ ـ تعالَى ـ ورَاحَ يَسْبَحُ ، وهوَ لا يَدْرى فى أىِّ اتِّجاهٍ ، ولا إلَى أىِّ هَدَفٍ يَسْبَحُ ..

أَمَّا الْمَرْكَبُ ، فقَدْ عادَ إلَى توازُنه ، مُواصِلًا رِحْلَتَهُ فى سَلامٍ ..

لكنَّ مَا حَدثَ لِنبىِّ اللهِ يُونُسَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بَعْدَ ذلك كانَ مُفاجَأَةً لَمْ يَتوقَّعْ حُدُوثَها أَوْ حتَّى تخْطُر لَهُ على بالٍ ..

فَجْأَةً وجدَ يُونُسُ عَلَيْهِ السَّلَامُ نَفْسَه أمامَ حُوتٍ عَظيمٍ .. حُوتٍ أرْسَلَهُ اللهُ ـ تعالَى ـ وسَخَّرَهُ لأداءِ رِسالَةٍ مُعَيَّنَةٍ هى ابْتلاعُ يُونُسَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ..

فتحَ الْحُوتُ فَمَهُ الْواسِعَ ، وقَبْلَ أنْ يتنَبَّه يُونُسُ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِشَىْءٍ ، كانَ الْحُوتُ قَدِ ابْتَلَعَهُ ، وأَطْبَقَ فَمَهُ عليْه بسُرْعَةٍ ..

وغاصَ الْحُوتُ إلى أَعْماقِ الْمِياهِ الدَّاكِنَةِ ، حَيْثُ الظَّلامُ يَشْتَدُّ ويَشْتَدُّ .. ولَمْ يكُنِ الْحُوتُ يَقْصِدُ بِنَبِىِّ اللهِ يُونُسَ عَلَيْهِ السَّلَامُ شَرًّا فقدْ أَوْحَى اللهُ ـ تعالَى ـ إِلَيْهِ ألا يُؤْذِىَ يُونُسَ ..

وفى قَاعِ الْبَحْرِ وجَد يُونُسُ نَفْسَهُ مُحاطًا بِظُلُماتٍ ثَلاثٍ بَعْضُها فَوْقَ بَعْضٍ .. وهى ظُلْمَةُ جَوْفِ الْحُوتِ ، وظُلْمَةُ مياه الأَعْماقِ ، وظُلْمَةُ اللَّيْلِ ..



وتذكَّر يونُسُ عليه السلام في سِجْنِه داخِلَ جَوْفِ الْحُوتِ وداخِلَ الظُّلُماتِ الثَّلاثِ أنَّه قدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وظَلَمَ قَوْمَهُ ، حِينَ تركَهُمْ ورَحَلَ يائِسًا مِنْ هِدايَتِهِمْ ..

وبدأ يُونُسُ عليه السلام يُسَبِّحُ رَبَّهُ ، ونادَى يُونُسُ رَبَّهُ قائِلًا :

﴿ لا إِلَهَ إِلا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ .

وظَلَّ يُونُسُ عليه السلام يُسَبِّحُ اللهَ بهذا التَّسْبِيحِ فَتْرَةً يَعْلَمُها اللهُ وَحْدَهُ .. قالَ بعْضُهمْ : إنَّهُ ظَلَّ يُسَبِّحُ اللهَ في بَطْنِ الْحُوتِ ثلاثَةَ أيَّامٍ ، وقالَ بعضُهُمْ : بلْ سَبْعَةَ أيَّامٍ واللهُ وَحْدَهُ يَعْلَمُ ذلِك ..

الْمُهِمُّ أنَّ يُونُسَ عليه السلام في أثْناءِ تَواجُدِه في بَطْنِ الْحُوتِ كانَ يُسَبِّحُ اللهَ ، ويسْتَغْفِرُهُ ، مُعْتَرِفًا بِظُلْمِهِ لِنَفْسِه وطَالِبًا مِنَ اللهِ لُطْفَهُ وَرَحْمَتَهُ به ..

واسْتَجابَ اللهُ - تعالَى - دُعاءَ نَبِيِّه يُونُسَ عليه السلام فأَوْحَى إلَى الْحُوتِ أَنْ تَصْعَدَ بِهِ إِلَى سَطْحِ الْماءِ ، وأَنْ يَقْذِفَ يُونُسَ مِنْ جَوْفِه ، قَرِيبًا مِنْ شَاطِئِ الْبَحْرِ .. فلَبَّى الْحُوتُ أَمْرَ رَبِّه ، وصَعِدَ إِلَى سَطْحِ الْماءِ ، مقْتَرِبًا مِنَ الْبَرِّ ، وقَذَفَ يُونُسَ عليه السلام ..

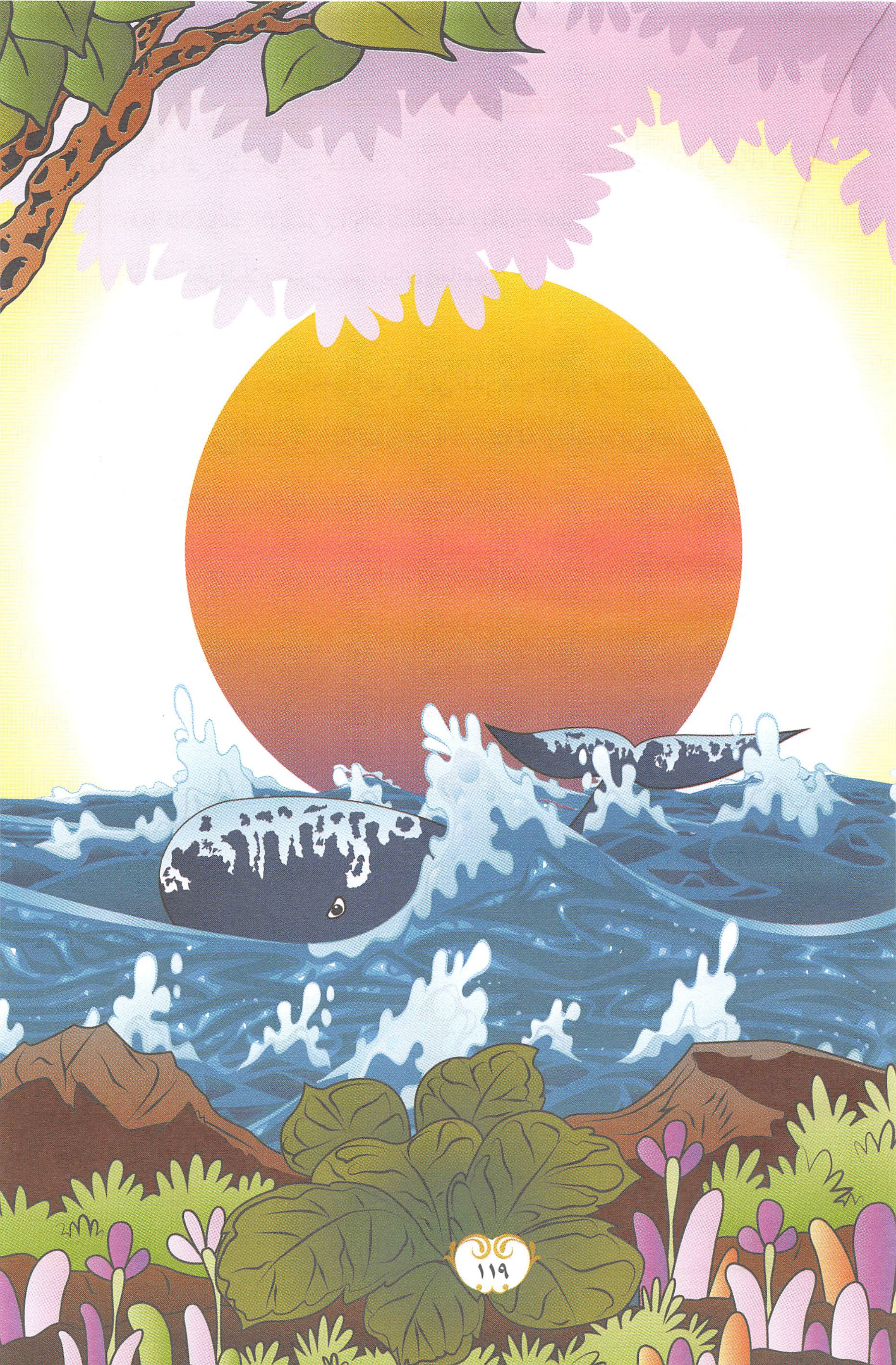
وجَدَ يُونُسُ نَفْسَه على الْبَرِّ وحِيدًا .. وكانَ يَشْعُرُ بالْجُوعِ والْبَرْدِ ..

وكانَ في جِسْمِهِ بَعْضُ الْجُرُوحِ والْقُرُوحِ مِنْ أَثَرِ جَوْفِ الْحُوتِ ، وكانتْ حَرارَةُ الشَّمْسِ تُسَبِّبُ لهُ أَلَمًا ، فأَنْبَتَ اللهُ - تعالَى - علَى يُونُسَ شَجَرَةً مِنْ « يَقْطِينٍ » وهو نَباتٌ عَرِيضُ الأَوْراقِ ، يُشْبِهُ نَباتَ الْقَرْعِ .. فكانَ يُونُسُ عليه السلام يسْتَظِلُّ بهذا النَّباتِ مِنْ حَرارَةِ الشَّمْسِ وبَرْدِ اللَّيْلِ ، ويأْكُلُ مِنْ ثِمارِه .. حتى شَفاهُ اللهُ - تعالَى - وعَافَاهُ ..

ثُمَّ أَرْسَلَ اللهُ - تعالَى - يُونُسَ إِلَى قَوْمِهِ ، وكانَ عدَدُهُمْ يزيدُ علَى مِائَةِ أَلْفٍ ، فَماذا وَجدَ يُونُسُ عليه السلام مِنْ قَوْمِه ؟!

لقَدْ وجدَ شيْئًا عَجَبًا .. الْقَوْمُ الَّذِينَ خرجَ منْهُمْ غَاضِبًا لِعَدَمِ إيمانِهِمْ ، وجدَهُمْ مُؤْمِنينَ ..

لقَدْ آمَنَ قَوْمُ يُونُسَ به بعْدَ رَحِيلِهِ عنْهُمْ يأْسًا منْهُمْ وحَزِنوا لِرَحِيلِه ..



وبهذا لَقَّنَ اللهُ نبيَّهُ يُونُسَ هذا الدَّرسَ ، حينَ أَوْحَى إِلَى الْحوتِ أَنْ يَبْتلعَهُ فى جَوْفِهِ ..

فما كانَ ليُونُسَ أَنْ يَتَسَرَّعَ ، وأَنْ يَتْرُكَ قَوْمَهُ ويَخْرُجَ غاضبًا منْهُم ، ويَائِسًا مِنْ هِدَايَتِهِم ..

ولَوْ أَنَّهُ انْتَظَرَ قليلًا وصَبَرَ علَيْهِمْ ، لرَأى إِيمانَهُمْ ..

قال تعالى :

﴿ وذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدر علَيْهِ فنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لا إِلَهَ إِلا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّى كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ * فاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وكَذلِكَ نُنْجِى الْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

تَمَّتْ



قصص الأنبياء

موسى عليه السلام



النبوءة

أَحْضَرَ نَبى اللهِ يُوسُفُ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَباهُ يعْقُوبَ وإِخْوَتَهُ وأهله وأَقاربَهُ ، لِيَعيشُوا فى مِصْرَ ، بَعْدَ أَنْ مَكَّنَ اللهُ لَهُ فى الأَرْض ..

ودعَا يُوسُفُ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَهْلَ مِصْرَ إِلَى عِبَادَةِ اللهِ الْوَاحِدِ الأَحَدِ ، فآمنَ به أَهْلُ مِصْرَ ..

وكانَتْ هذه الْبِدايَةَ لِحياةِ بَنِى إِسْرَائيلَ فِى مِصْرَ لسَنواتٍ طَويلَةٍ بعْدَ ذلكَ ..

ومضَتْ سَنواتٌ ..

فَتُوُفِّىَ يعْقُوبُ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وقَبْلَ أَنْ تَحْضُرَهُ الْوَفَاةُ جمعَ أَبْنَاءَهُ وأَحْفادَهُ وسَأَلهمْ :

ـ ماذَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِى ؟!

فقَالوا له جَميعًا :

ـ ﴿ نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْراهيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وإِسْحَاقَ ﴾ .

وهكذَا تُوُفِّى يعْقُوبُ وهوَ مُطْمَئِنٌّ إلى أَنَّ أَبْنَاءَهُ وأَحْفَادَهُ على دينِ الإِسْلامِ ..

ومَضَتْ سَنَواتٌ وسَنَواتٌ ..

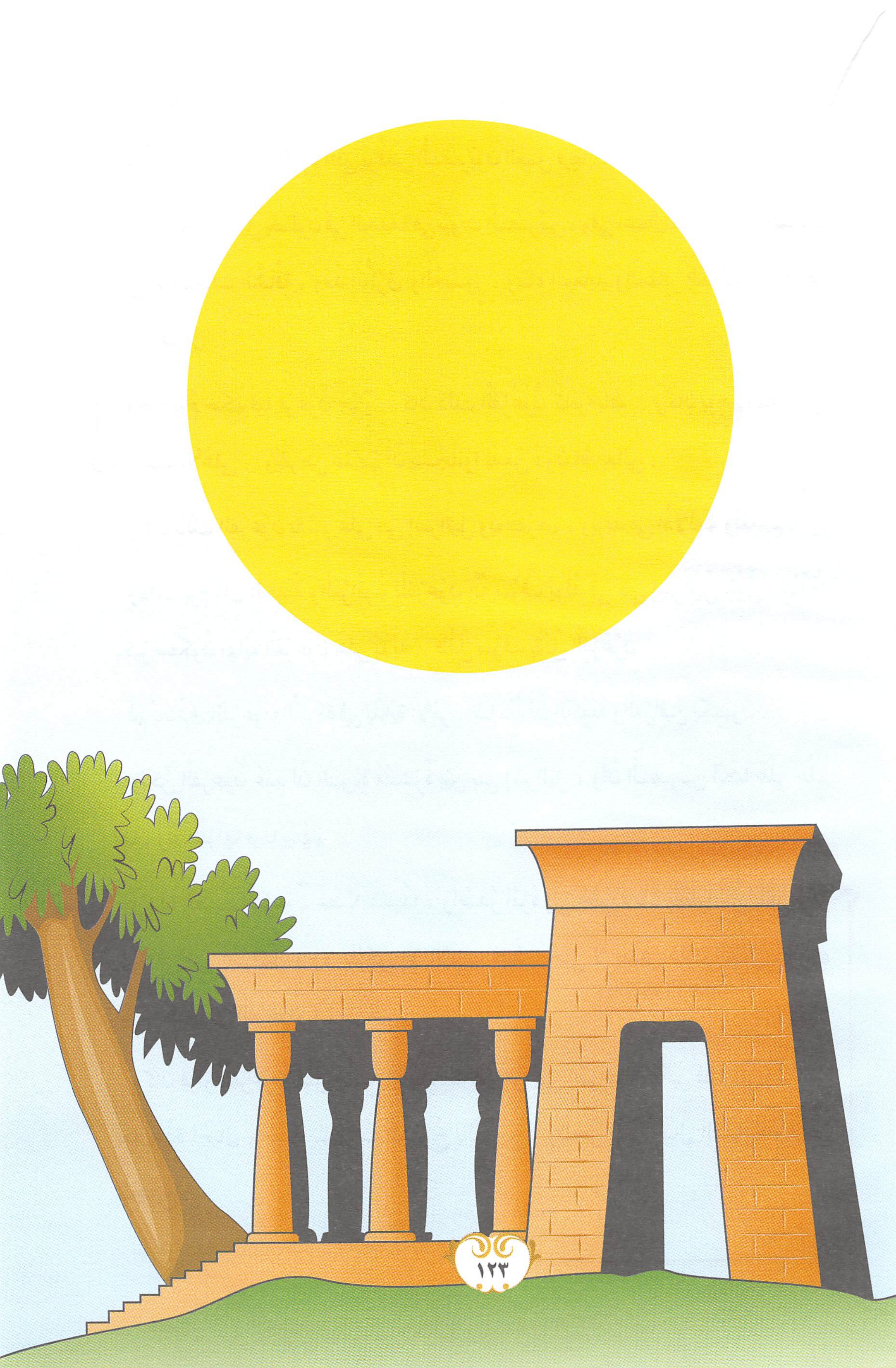
وتُوُفِّىَ يُوسُفُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فاسْتَمَرَّ بَنُو إِسْرائِيلَ يَعيشُونَ فِى مِصْرَ ..

وخِلالَ عشْرَاتِ السَّنواتِ ، تكَاثَرَ بَنُو إِسْرائِيلَ ، وتَزَايدَ عَدَدُهمْ بصُورَةٍ كَبيرَةٍ ، حتَّى صارُوا يُكوِّنُونَ شَعْبًا .. وأَصْبحوا يَشْتَغِلونَ فى الْعَدِيدِ مِنَ الْمِهَنِ ..

وبمُرُورِ الْوَقْتِ تَناسَى بَنُو إِسْرَائيلَ عبادَةَ التَّوْحِيدِ ، وتَنَاسَى الْمِصْرِيُّونَ كذلك ما دَعَا إِليه يُوسُفُ فِى مِصْر ..

عادَ الْمِصْرِيُّونَ إِلَى عبادَةِ أَوْثَانِهم الْقَدِيمَةِ ، كما عَادُوا إِلى عِبَادَة الْفِرْعَوْنِ .. وقَلَّدَهُمْ بَنُو إِسْرَائيلَ فى كُفْرِهِمْ ..

وجاءَ على الْمِصْرِيِّينَ وقْتٌ نَسوا فِيه فَضْلَ نبىِّ الله يوسُفَ علَيْهِمْ ، حِينَ دَبَّرَ أَمْرَهُمْ فى سَنَواتِ الْقَحْطِ والْجَفَافِ التى مَرَّتْ بها بلادُهُمْ .. فسَخَّروا بَنِى إِسْرَائيلَ للْعَمَلِ فى الأَعْمالِ



الشَّاقَّةِ ، والْحِرَفِ الْحَقِيرَةِ التى يَرْفُضُ الْمِصْرِيُّونَ الْعَمَلَ فِيها ..

فكانَ بَنُو إِسرائيلَ يَعْمَلُونَ فى الْخِدْمَةِ فى بُيُوتِ الْمِصْرِيِّينَ ، وفى أَعْمالِ الزِّرَاعَةِ والْحَصَادِ ، وفى الصِّناعَاتِ الشَّاقَّةِ ، ومَدِّ الطُّرُقِ والْجُسُورِ ، وبِناءِ الْمَعَابِدِ والْمَقَابِرِ الْمَلَكِيَّةِ ، وغَيْرِها مِنَ الأَعْمالِ ..

وجاءَ يَوْمٌ حكَمَ فيه فِرْعَوْنٌ جَبَّارٌ .. كانَ ذلك الْفِرْعَونُ كَافِرًا باللهِ .. وكانَ يُوهِمُ الْمِصْرِيِّينَ أَنَّهُ رَبُّهُمُ الأَعْلَى .. ويَفْرِضُ عليْهِمْ أَنْ يَسْجُدُوا لَهُ مِنْ دُونِ اللهِ تعالَى ..

وكانَ ذلك الْفِرْعَوْنُ يَقْسُو على بَنِى إِسْرَائِيلَ ويَحْتَقِرُهُمْ ، ويَزيدُ فى إِذْلالِهِمْ وتَعْذِيبهم ..

وذاتَ يَوْمٍ قال الْكَهَنَةُ والْعَرَّافُونَ لِلْفِرْعَوْنِ إِنَّهُ سَوْفَ يُولَدُ فى بَنى إِسْرَائِيلَ طِفْلٌ ، عِنْدَما يَكْبَرُ سَتكُونُ نِهايَةُ الْفِرْعَوْن على يَدَيْه .. طِفْلٌ سَوْفَ يَقْتُلُ الْفِرْعَوْنَ ..

لَمْ يُصَدِّقِ الْفِرْعَوْن النُّبوءَةَ فى بِدايَةِ الأَمْر ، ظَنًّا مِنْهُ أَنَّ الْكَهَنَةَ والْعَرَّافِين يكْذِبُونَ ..

ولكِنَّ الْفِرْعَوْنَ علِمَ أَنَّ النُّبوءَةَ مُنْتَشِرَةٌ بَيْنَ بنى إِسْرائِيلَ ، وأَنَّ الْمِصْرِيِّين أَيْضًا على عِلْمٍ بها ، ويَتَنَاقَلُونَها فيمَا بَيْنَهُمْ ..

ولِهذا غَضِبَ الْفِرْعَوْنُ غَضَبًا شَدِيدًا ، وأَصْدرَ أَمْرَهُ إِلى جُنُودِهِ بأَنْ يَقْتُلُوا كُلَّ طِفْلٍ ذكَرٍ يُولَدُ فى بَنِى إِسْرائِيلَ ، ولا يَتْرُكوا إِلا الإِناثَ فقَطْ ، حتى لا يعِيشَ ذلِكَ الطِّفْلُ ، الَّذى سَيُسْقِطُ عَرْشَ الْفِرْعونِ عِنْدَما يَكْبَرُ ..

وكانَ قرارُ الْفِرعَوْنِ بِقَتْلِ جَميعِ الأَبْناءِ الذُّكُور منْ بَنى إِسْرائيلَ ، يَعْنى فَناءَ بنى إِسْرَائِيلَ بَعْدَ عِدَّةِ أَجْيَالٍ ، حيْثُ سَيَمُوتُ الشُّيُوخُ بالتَّدْرِيج ، وتَلْحَقُ بِهِم أَجْيَالُ الشَّبابِ ، فَيَفْنَى الْجَميعُ ..



وهُنا تدَخَّلَ بعْضُ الْحُكَماءِ مِنْ رِجالِ الْحُكْمِ فى الدَّوْلَةِ ، وَقالوا لِلْفِرْعَونِ : إنَّ فَناءَ بنى إسْرائيل مَعْناهُ ضياعُ ثَرْوَةٍ بَشَرِيَّةٍ ضَخْمَةٍ ، تنْفعُ مِصْرَ فى الزِّراعَةِ والصِّناعَةِ ، والْحِرَفِ الْمُخْتَلفَةِ ، وهذا يُضيعُ على مِصْرَ ثَرْواتٍ ، خاصَّةً وأَنَّهُمْ يعْملُونَ بالسُّخْرَةِ أَوْ بِأُجُورٍ زَهيدَةٍ ..

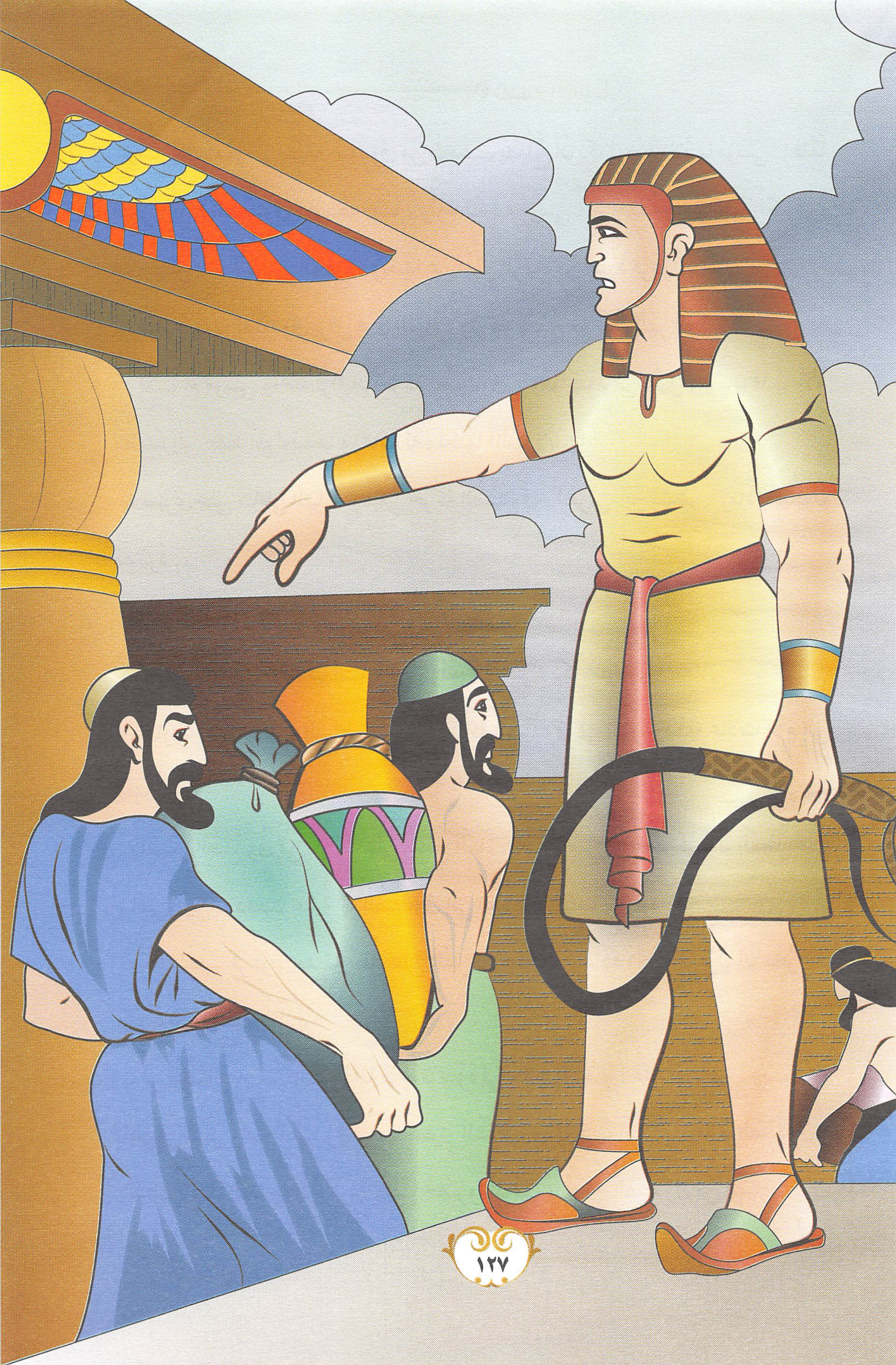
واقْتنعَ الْفِرعَوْنُ بِوجْهَةِ نَظَرهِمْ ، فأَصْدرَ أَمْرَهُ بتعْديلِ قَرارِهِ كالآتِى : يُذْبَحُ الْمَوالِيدُ الذُّكُور مِنْ بنى إسْرائيل فى عَامٍ ، ويُتْرَكُونَ فى الْعامِ التَّالِى .. وبهَذا يَسْتَمِرُّ نَسْلُ بَنى إسْرائِيل ، ولا تَفْنَى أَجْيَالُهُمْ ..

وكانتْ أُمُّ موسَى واحدَةً مِنْ نِساءِ بَنى إسْرائِيل ، اللائى تعرَّضْنَ لِقَسْوَةِ هذا الْقَرارِ الظَّالِمِ .. وقَدْ حمَلَتْ بابْنِها هَارُونَ ، ووَضَعَتْهُ فى الْعَامِ الَّذى لا يُذْبَحُ فيه الْمَوالِيدُ ..

وفى الْعَامِ التَّالِى حملَتْ بِأَخِيهِ مُوسَى ، ووَضَعَتْهُ فى الْخَفَاءِ ، دونَ أَنْ يَشْعُرَ بها جُنُودُ فِرْعَوْنَ ، حتى لا يَقْتُلُوهُ ، ولَكِنَّها كانتْ خائِفة علَيْهِ مِنْ بَطْشِ فِرْعَوْنَ وجُنُودِهِ ..

وكانَتْ عِنايَةُ اللهِ تحْرُسُ مُوسَى ، فأَوْحى اللهُ ـ تعالَى ـ إلَى أُمِّهِ أَنْ تُرْضِعهُ ، فإذا خَافَتْ علَيْهِ ، فإنَّ علَيْها أَنْ تَضَعَهُ فى صُنْدُوقٍ ، وتُلْقِى به فى النِّيلِ ، وأَمَرَهَا سُبْحَانَهُ أَلا تخافَ عليه ولا تَحْزَنَ ، لأَنَّهُ سَوْفَ يتكَفَّلُ بِحفْظِهِ ورِعَايَتِهِ ..

وطَمْأَنها إِلَى أَنَّهُ سوْفَ يَرُدُّ إِلَيْها صَغِيرَها مُوسَى ، وسَوْفَ يكُونُ لِهذا الْغُلامِ شَأْنٌ عظِيمٌ عِنْدَما يكْبَرُ ، حيْثُ سَيَخْتَارُه اللهُ ـ تعالَى ـ رسُولًا إِلَى بنى إسْرائِيلَ ، وإِلَى الْفِرْعَوْنِ نَفْسِه .. فاطْمأَنَّ قلْبُ أُمِّ مُوسَى وفرحَتْ بهذا الوَحْيِ مِنَ اللهِ ، الَّذى تكَفَّلَ بِحفْظِ ابْنِها ورعايَتِهِ ، بل وأَنْبأَها بِمُسْتَقْبَلِهِ أَيْضًا ..



وسارَعَتْ أمُّ موسَى بِصُنْعِ صُنْدُوقٍ من الْخشَبِ يَصْلُحُ أنْ يكُونَ مَهْدًا لابْنِها موسَى .. فلمّا انْتهَى إعْدادُ الصُّنْدُوقِ ، فرَشَتْهُ جيِّدًا ، وأرْقَدتْ فيه موسَى ، ثمَّ حمَلَتْهُ هى وابْنتُها الْكبْرى ، مُتوجهتَيْنِ إلَى النِّيلِ فى الْخفَاءِ ، وبَعيدًا عنْ أعْيُنِ الرُّقَباءِ مِن جُنُودِ فِرْعَوْنَ ..

وهناكَ ألْقَتِ الصُّنْدُوقَ بِرِفْقٍ فوْق الْمِياهِ ، وترَكَتْهُ يَسْبحُ مع تيَّارِ النَّهْرِ الْعَظِيمِ ..

وقفَتْ أمُّ مُوسَى وأُخْتُهُ تُراقِبانِ حرَكَةَ الصُّنْدُوق ، وهُوَ يَبْتَعِدُ فى النِّيلِ ، وكانَ قَلْبُ الأُمِّ مُطْمَئِنًّا إلَى حِفْظِ اللهِ لِوَلِيدِها ورِعَايَتِهِ له ، لكنَّهَا قالَتْ لابْنَتِها :

ـ سِيرى علَى شاطِئِ النيلِ ، وتَتَبَّعى حرَكَةَ الصُّنْدُوقِ ، لِتَعْرِفى أيْنَ يَسْتَقِرُّ ، وماذَا سيَكُونُ مَصِيرُهُ ..

فقالَتِ الابْنَةُ :

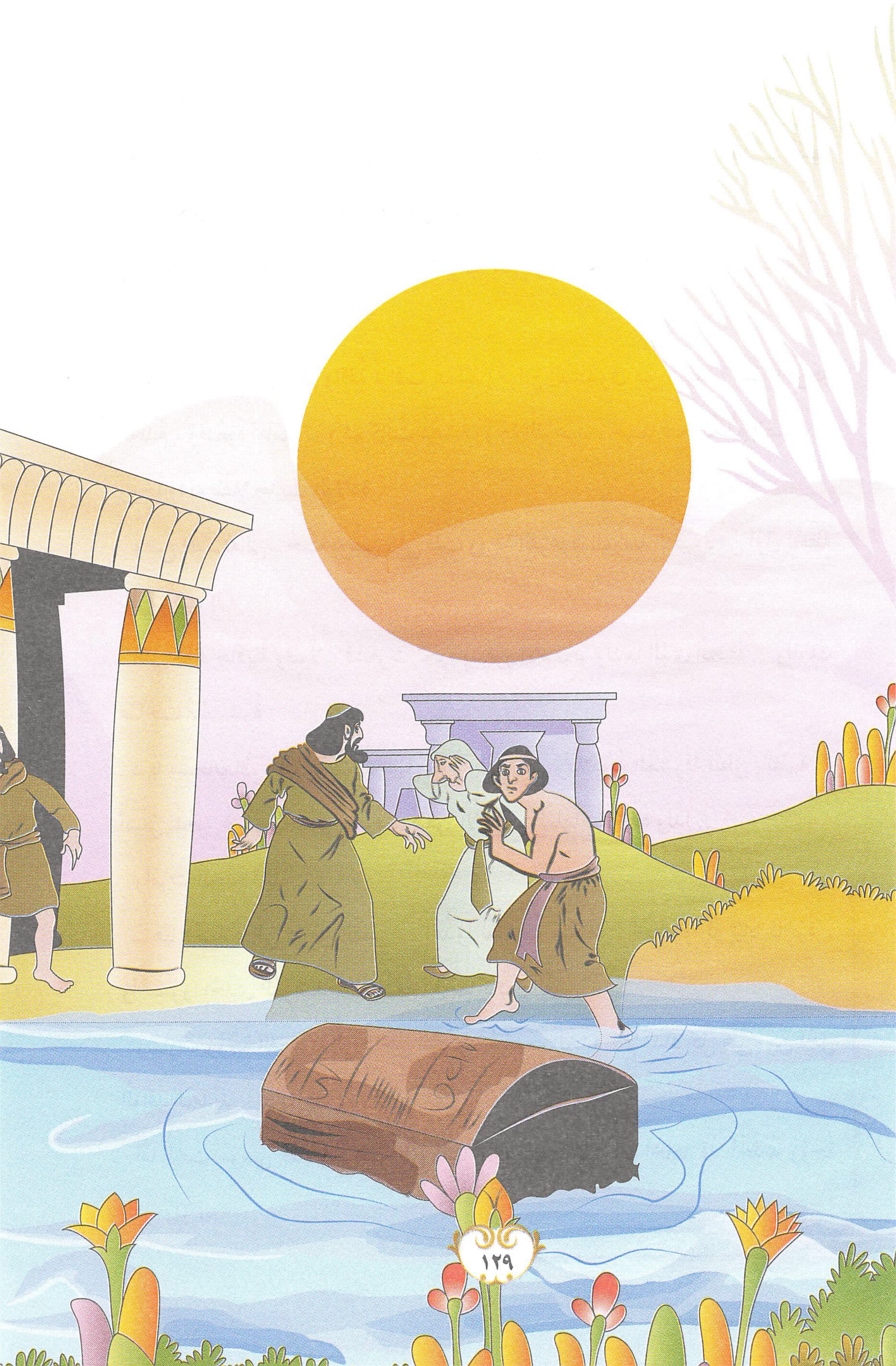
ـ اطْمَئِنّى يا أُمّى .. سوْفَ أتَتَبَّعُ أخِى ، وأعُودُ لأُخْبِرَكِ بكُلِّ شَيْءٍ ..

وسارَتِ الابْنَةُ بِحذاءِ الشَّاطِئِ ، مُراقِبَةً حرَكَةَ الصُّنْدُوقِ فى النِّيلِ ، بيْنَما عادَتِ الأُمُّ إلَى بَيْتِها ..

واسْتَمَرَّ الصُّنْدُوقُ فى حرَكَتِهِ على سَطْحِ الْماءِ ، حتَّى وصَلَ إلَى قَصْرِ فِرْعَوْنَ الْمُطِلِّ على شَاطِئِ النِّيلِ .. دفَعَتْ عِنايَةُ اللهِ الصُّنْدُوقَ إلَى الشَّاطِئ ، فرَسَا بِجوَارِه ..

وكانَ لقَصْرِ فِرْعَوْنَ حَديقَةٌ تُطِلُّ علَى النِّيلِ .. وكانَ مِنْ عادَةِ زَوْجَةِ فِرْعَوْنَ أنْ تَخرُجَ ، وتتَنزَّهَ فى الْحَديقةِ كلَّ يَوْمٍ ..

وفى تِلْكَ السَّاعَة ، كانتْ زوْجَةُ فِرْعَوْنَ تتنزَّهُ فى حَديقَةِ الْقَصْرِ ، على الشَّاطِئ ، وبيْنَما هى تَنْظُرُ فى النيلِ رأَتِ الصُّنْدُوق راسِيًا بِجوَارِ الشَّاطِئ .. فجذَب انْتباهَها وُجودُ الصُّنْدُوقِ ، ولِذلك نادَتِ الْخدَمَ والْجَوارى ، فلمّا حضَرُوا أمَرَتْهُمْ بإخْراجِ الصُّنْدُوقِ مِنَ الْمِياهِ ..



وَقَدْ كَانَتْ زَوْجَةُ فِرْعَوْنَ ـ على عَكْس زَوْجِها الْكَافِرِ ـ سَيِّدَةً مُؤْمِنَةً باللهِ ـ تعالَى ـ لكنَّها كانَتْ تُخْفِى إيمانَهَا عَنْ زَوْجِها خوْفًا مِنَ بَطْشِهِ بها ..

وكَانَتْ بالإِضَافَةِ إِلَى ذلِكَ عَاقِرًا ، فلَمْ تُنْجِبْ لِلْفِرْعَوْنِ ولَدًا يَحْمِلُ اسْمَهُ ، ويَرِثُ عَرْشَ مِصْرَ مِنْ بَعْدِه ..

وكانَتْ زَوْجَةُ الْفِرْعَوْنِ واقِفةً تُرَاقِبُ عَمَلِيَّةَ إِخْرَاجِ الصُّنْدوقِ مِنَ الْمِياهِ ، فلمَّا أَخْرَجَهُ الخَدَمُ ، وضَعُوهُ أمامَهَا .. وكم كانَتْ دَهْشَةُ زَوْجَةِ الْفِرْعَوْنِ ، حِينما فَتَحَ الْخَدَمُ الصُّنْدُوقَ ووَجَدُوا به طِفْلًا حَديثَ الْوِلادَةِ ..

وضعَ اللهُ ـ تعالَى ـ حُبَّ مُوسَى ، فِى قَلْبِ زَوْجَةِ الْفِرْعَوْنِ الْمُؤمِنَةِ الطَّيِّبَةِ ، مِنْ أَوَّلِ لَحْظَةٍ نَظَرَتْ فِيها إِلَيْه ..

أَلْقَى عليْه جاذِبِيَّةً وقَبُولًا ، فشَعَرتْ نحْوهُ بِشُعُورِ الأُمِّ نحْوَ وَلدِهَا الذى أَنْجَبَتْهُ .. ولِذلكَ صاحَتْ مُسْتَبْشِرَةً :

ـ يا سُبْحانَ اللهِ ! إِنَّ وجْهَهُ الْجَميلَ يَنْطِقُ بالْبَرَاءَةِ ، ومَلامِحَهُ الْمُشْرِقَة تَنْطِقُ بالطِّيبَةِ .. أَشْعُرُ بِشُعُورٍ غَرِيبٍ يَجْذِبُنى نَحْوَهُ .. شُعُورِ الأُمِّ نَحْوَ طِفْلِها سأتَّخِذُهُ وَلَدًا ..

وأَمَرْتِ الْخَدَمَ قائِلَةً :

ـ هيَّا احْمِلُوهُ إِلَى دَاخِلِ الْقَصْرِ .. أَعِدُّوا لَهُ غُرْفَةً مَلَكِيَّةً .. أَحْضِروا لَهُ ثِيَابًا فاخِرَةً ، وأَحْضِرُوا إِحْدَى الْمُرْضِعَاتِ لِتُرْضِعَهُ ، فرُبَّما كانَ جَائِعًا ..

وسارَتْ زَوْجَةُ الْفِرْعَوْنِ إِلَى دَاخِلِ الْقَصْرِ ، مُتَقَدِّمَةً الْخَدَمَ ، لإِعْدادِ كُلِّ شَىْءٍ مِنْ أَجْلِ الْوَافِدِ الْجَدِيدِ ..

أَمَّا أُخْتُ مُوسَى فقَدْ أَسْرَعَتْ إِلَى أُمِّها ؛ لِتُطَمْئِنَهَا إِلَى أَنَّ أخاها قَدْ أَخَذَتْهُ زَوْجَةُ الْفِرْعَوْنِ ..

دخلَتْ زَوْجَةُ الْفِرْعَوْنِ علَى زَوْجها الْكافِرِ الْجَبَّار ، ومَعَها مُوسَى فلَمَّا رَآهُ الْفِرْعَوْنُ انْتَفَضَ وصاحَ غاضِبًا :

ـ مَنْ هَذا الْغَلامُ الْوَلِيدُ ؟! ومِنْ أَيْنَ أَتَيْتِ بِه يا زَوْجَتِى ؟!

فقالَتْ زَوْجَةُ الْفِرْعَوْنِ الْمُؤْمِنَةُ الطَّيِّبَةُ :

ـ وَجَدْنَاه داخِلَ صُنْدُوقٍ فى النِّيلِ ، بِجوارِ حَديقَةِ الْقَصْرِ ..

فصاحَ الْفِرْعَوْنُ غاضِبًا :

ـ هذا الطِّفْلُ لابُدَّ أَنْ يكونَ أَحَدَ أَبْناءِ بنى إِسْرائِيلَ الْمَطْلُوب قتْلُهُمْ ، ولابُدَّ أَنْ يُقْتَلَ فى الْحَالِ ..

ونادَى الفِرْعونُ الْحُرَّاس ؛ لِيأْخُذُوا الطِّفْلَ ويَقْتُلُوهُ ، كما يفْعَلونَ مع بَقِيَّةِ أَبْناءِ بَنى إِسْرائِيلَ ..

وحاولَ الْجُنُودُ انْتِزاعَ الطِّفْل من بَيْنِ يَدَىْ زَوْجَةِ الْفِرْعَوْنِ لكنَّها تشَبَّثَتْ به فى إِصْرارٍ وعِنادٍ ، وضَمَّتْهُ إِلَى صَدْرِها ، كما تفْعَلُ الأُمُّ مع وَلِيدِهَا ..

وقالَتْ لِلْفِرعَوْنِ :

ـ هذا الطِّفْلُ سيَعيشُ ، ولَنْ يُقْتَلَ ..

فقالَ الْفِرْعونُ فى دَهْشَةٍ :

ـ لماذَا ، وقدْ أَمَرْتُ بِقَتْلِه ؟!

فَقَالَتِ الزَّوْجَةُ :

ـ أَشْعُرُ نَحْوَهُ بشُعُورِ الأُمِّ نَحوَ وَلِيدِها .. لا تَقْتُلُوهُ ، عسَى أَنْ يَنْفَعنا ، أَوْ نتَّخِذَهُ وَلَدًا ..

نظَرَ الْفِرْعَوْنُ إِلَى زوْجَتِه وهو أَكْثَرُ دَهْشَةً ، وقالَ :

ـ كيْفَ نتَّخِذُهُ وَلَدًا ؟! أَلَم تَسْمَعِى عَنِ النُّبوءَةِ الَّتى أَصْدَرْتُ بِسَبَبِها قَرارى بقَتْلِ أَبْناءِ بنى إِسْرائيلَ ؟!



فقالَتِ الزَّوْجَةُ :

ـ سَمِعْتُ .. ولكنَّ هذا الطِّفْلَ الْبَرِىءَ ، لَمْ يَرْتَكِبْ ذَنْبًا ، لِكَىْ يُقْتَل بِسَبَبِهِ .. اتْرُكْهُ لِيَعيشَ فنُرَبِّيَهُ ، ويَكْبَرَ داخِلَ الْقَصْرِ على أَنَّهُ ابْنُنَا ، وليْسَ مِنَ الْمَعْقولِ أَنْ يقْتُلكَ عِنْدَما يَكْبَرُ .. على الأَقَلِّ سيَحْفَظُ لكَ جميلَ تَرْبِيَتِهِ ..

وأَلْقَى اللهُ ـ تعالَى ـ محَبَّةَ مُوسَى فِى قَلْبِ الْفِرْعَونِ الْجَبَّارِ ، فوافَقَ على أَنْ يُتْرَكَ مُوسَى لِيَعِيشَ ..

تَمَّتْ

احرص على اقتنائك المجلد الثالث

رقم الإيداع : ٢١٦٢
الترقيم الدولى : ٢ - ٢٨٩ - ٢٦٦ - ٩٧٧





خـطـوط للتجـلـيد
مدينة العبور - المنطقة الصناعية الأولى
تليفون : ٤٦١٠٦٦٣٦ (٠٢)
Khotout.binding@gmail.com